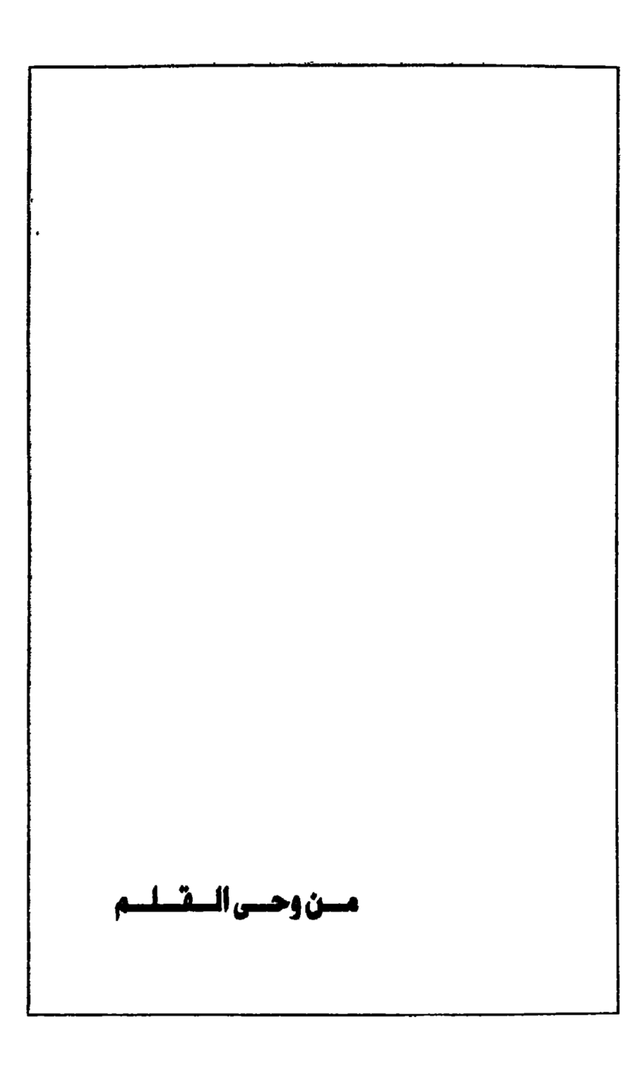
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

روائع الأدب العربي
(الأعمال الفكرية)

مصطفى صادق الرافعى

من وحى القلم





من وحي القلم

من وحي القلم

مصطفى صادق الرافعي



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العربي)

(الأعمال الفكرية)

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

« ذٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ۞ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَابَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ
فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۞
أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَٰهُمُ ٱقْتَدِهْ »

دعوة الأستاذ الإمام

حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله

لمؤلف «وحي القلم» في أول عهده بالأدب

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي زاده الله أدبا

لله ما أثمر أدبك، ولله ما ضمن لي قلبك، لا أقارضك ثناء بثناء، فليس ذلك
شأن الآباء مع الأبناء، ولكني أعدك من خلص الأولياء، وأقدم صفك على صف
الأقرباء، وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق الباطل، وأن يقيمك
في الأواخر مقام حسان في الأوائل، والسلام.

محمد عبده

٥ شوال ١٣٢١

مصطفى صادق الرافعى
رحلته فى الحياة ورسالته فى الثقافة والمجتمع

تقديم

رجاء النقاش

ولد الأديب العربى الكبير مصطفى صادق الرافعى فى بيت جده لأمه فى قرية « بهتيم » بمحافظة القليوبية فى أول يناير ١٨٨٠ وعاش حياته فى طنطا التى توفى بها فى ١٤ مايو سنة ١٩٣٧ . وبذلك يكون « الرافعى » قد عاش سبعة وخمسين عاما ، كانت كلها الوانا متعددة من الكفاح المتواصل فى الحياة والأدب والوطنية .

ومنذ وفاة الرافعى حتى الآن ـ سنة ١٩٩٥ ـ وقعت فى الحياة الأدبية ظواهر غريبة تلفت النظر فيما يتصل بالرافعى ، فقد كان الرافعى فى حياته اديبا صاحب كلمة مسموعة . وكان له جمهور كبير من المتحمسين له فى مصر والوطن العربى كله . وكان للرافعى منذ بدأ حياته الأدبية معارك قوية مع الكثيرين من أبناء جيله مثل العقاد وطه حسين، وبعد أن مات الرافعى بدأ الاهتمام به يقل عاما بعد عام حتى كاد ينتهى تماما خلال الستينات والسبعينات والثمانينات، فقليلا ما كان أحد يسمع اسمه أو يقرأ له أو يهتم بدراسته ، ولولا اهتمام مدينة طنطا وشبابها المثقف بالرافعى واحتفالهم بذكراه ، لأصبح الرافعى نسيا منسيا فى الواقع الأدبى المعاصر ، ولكن

السنوات الأخيرة شهدت بداية جديدة للاهتمام بالرافعى ، والغريب أن هذا الاهتمام لم يبدأ فى صفوف الأدباء التقليديين الذين طالما قيل ان الرافعى ينتسب اليهم ، بل بدأ فى صفوف الأدباء المجددين الذين يحاولون تقديم أساليب وأشكال فنية مختلفة عن المألوف فى الأدب العربى ، ذلك أن الأدباء والشعراء المجددين أصحاب المدارس الحديثة قد اكتشفوا فى الرافعى نبعا غنيا بالصور والتعبيرات والخيالات والحرية فى التصوير والتفكير • والذين ينادون الآن بأحدث صيحة فى الحياة الأدبية العربية وهى الصيحة التى جعلوا عنوانها « قصيدة النثر » •• أصحاب هذه الصيحة الجديدة يجدون أن الرافعى كان رائدا فى مجال ما يسمى باسم « قصيدة النثر » ، وأنه قادر على أن يلهمهم بالكثير من قوة التعبير وحريته ونضارته وجماله الخاص الخالى من التقليد أو التبعية لأى شكل أدبى سابق عليه •

أى أن الحياة الأدبية العربية بدأت تكتشف الرافعى من جديد بعد أن أهملته ما يقرب من ستين سنة متصلة ، وبعد أن نظرت اليه على أنه أديب « تقليدى » تصعب قراءته ، لأن كتابته مليئة بالتعقيد والتكلف كما كان يقال عنه •

الآن فقط ، وبعد وفاة الرافعى بثمانية وخمسين عاما ، بدأ الأدباء يعودون الى الرافعى ويعيدون التفكير فيه ويرون أن نظرتهم اليه كانت خاطئة وأن أسرار الجمال فى أدبه كانت أكثر بكثير مما توهم المتوهمون الذين حكموا عليه بالغموض والتعقيد فأهملوه ونفضوا أيديهم منه •

وقد سارت دور النشر فى مصر على نفس الطريق فى اهمال الرافعى واعطاء ظهرها له ، فلم تنشر له دار نشر مصرية كلمة واحدة منذ ما يقرب من نصف قرن كامل ، وعندما تقوم هيئة الكتاب

اليوم بتقديم مختارات من كتابه الهام والأساسى « وحى القلم » فانها بذلك تكون أول هيئة ثقافية مصرية تعيد الاعتبار للرافعى ، وتعيد فتح الصفحات الخاصة به فى تاريخ أدبنا المعاصر بعد أن كانت هذه الصفحات الثمينة مغلقة ولا أحد يفكر فى فتحها أو الاهتمام بها ٠

وهذا درس كبير من دروس الأدب بل ومن دروس الحياة ، فان الأشياء الثمينة التى بذل أصحابها جهدا حقيقيا فى صناعتها واعدادها ، وصرفوا فى ذلك أعمارهم ومواهبهم الغالية ٠٠ هذه الأشياء قد تتعرض للاهمال حينا من الدهر ، وقد تمر أجيال لا ينتبه الناس فيها الى هذه الأشياء الثمينة ، ثم تعتدل الموازين بعد ذلك ، وتصفو الأذواق ، وتصبح العيون قادرة على الرؤية وحسن الاعتبار ، فتعود الأشياء الثمينة الى مكانها ومكانتها من حب الناس واعجابهم وتقديرهم الكبير ٠

وهذا هو شأن الرافعى الذى أهملناه منذ أكثر من نصف قرن ونعود الآن اليه لنرى ما فى عالمه من جمال نادر لا يشبهه فى دنيا الجمال جمال آخر ٠

فمن هو الرافعى ، وما هى حكايته فى الأدب والحياة ؟

اسمه كما هو معروف لنا جميعا مصطفى صادق الرافعى ، وأصله من مدينة « طرابلس » فى لبنان ، وما زالت أسرة الرافعى موجودة فى طرابلس الى الآن ، أما الفرع الذى جاء الى مصر من أسرة الرافعى فان الذى أسسه هو الشيخ محمد الطاهر الرافعى الذى وفد الى مصر سنة ١٨٢٧ ، ليكون قاضيا للمذهب « الحنفى » أى مذهب « أبى حنيفة النعمان » وهو أحد المذاهب السنية الكبرى

المعروفة فى الفقه الاسلامى وهى : المذهب الشافعى ، والمذهب المالكى ، والمذهب الحنبلى ، ومذهب أبى حنيفة . وقد جاء الشيخ محمد الطاهر الرافعى الى مصر بأمر من السلطان العثمانى ليتولى قضاء المذهب الحنفى ، وكانت مصر حتى ذلك الحين « ولاية » عثمانية .

المهم أن الشيخ محمد الطاهر الرافعى كان أول من وفد الى مصر من أسرة «الرافعى» المعروفة فى «طرابلس ــ لبنان» (١) ، ويقال ان نسب أسرة الرافعى هذه يمتد الى عمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين . وقد جاء بعد الشيخ محمد الطاهر الرافعى عدد كبير من اخوته وأبناء عمه ، وبلغ عدد أفراد أسرة الرافعى فى مصر حين وفاة مصطفى صادق الرافعى سنة ١٩٣٧ ما يزيد على ستمائة ، كما يقول الأستاذ محمد سعيد العريان فى كتابه « حياة الرافعى » . وكان العمل الرئيسى لرجال أسرة الرافعى هو القضاء الشرعى حتى وصل الأمر ــ كما يقول الأستاذ العريان أيضا ــ الى الحد الذى اجتمع فيه من آل الرافعى أربعون قاضيا فى مختلف المحاكم الشرعية المصرية فى وقت واحد « وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعى ، وقد تنبه « اللورد كرومر » الى هذه الملاحظة فأثبتها فى بعض تقاريره الى وزارة الخارجية الانجليزية » لأنها كانت ظاهرة ملفتة للنظر وتحتاج الى تفكير وتأمل ..

وكان والد الرافعى هو الشيخ عبد الرازق الرافعى الذى تولى منصب القضاء الشرعى فى كثير من أقاليم مصر وكان آخر عمل له هو رئاسة محكمة طنطا الشرعية .

أما والدة الرافعى فكانت كما يقول الأستاذ العريان « سورية

---

(١) هناك مدينة عربية أخرى باسم « طرابلس الغرب » ، عاصمة ليبيا .

الأصل كأبيه ، وكان أبوها الشيخ الطوخى تاجرا تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وكانت إقامته فى بهتيم من قرى محافظة القليوبية ، وكان له فيها ضيعة ، وفيها ولد الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى يناير سنة ١٨٨٠ ، اذ آثرت امه أن تكون ولادته فى بيت أبيها » ٠

دخل الرافعى المدرسة الابتدائية ونال شهادتها ثم أصيب بمرض يقال انه « التيفود » أقعده عدة شهور فى سريره ، وخرج من هذا المرض مصابا فى أذنيه ، وظل المرض يزيد عليه عاما بعد عام حتى وصل الى الثلاثين من عمره وقد فقد سمعه بصورة نهائية ٠ ولم يحصل الرافعى فى تعليمه النظامى على أكثر من الشهادة الابتدائية٠

ومعنى ذلك أن الرافعى كان مثل العقاد فى تعليمه ، فكلاهما لم يحصل على شهادة أخرى غير الشهادة الابتدائية ٠

كذلك كان الرافعى مثل طه حسين « صاحب عاهة دائمة » هى فقدان البصر عند طه حسين ، وفقدان السمع عند الرافعى ٠

ومع ذلك فقد كان الرافعى مثل زميليه العقاد وطه حسين من أصحاب الارادة الحازمة القوية ، فلم يعبأ بالعقبات التى وضعتها الحياة فى طريقه ، وانما اشتد عزمه وأخذ نفسه بالجد والاجتهاد ، وعلم نفسه بنفسه حتى استطاع أن يكتسب ثقافة رفيعة وضعته فى الصف الأول من أدباء عصره ومفكريه ٠

وأحسن وصف لجهوده الرافعى فى تعليم نفسه هو ما كتبه عنه صديقه وتلميذه محمد سعيد العريان الذى كان من أقرب الناس الى الرافعى خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته والتى تمتد من ١٩٣٢ الى ١٩٣٧ ، وقد عرف العريان عن الرافعى فى هذه الفترة

كل أسرار حياته ، وكل ما يتصل بتاريخه وثقافته وتكوينه ، وعن ثقافة « الرافعى » يقول العريان :

« ظل الرافعى على الدأب فى القراءة والاطلاع الى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثمانى ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه • وفى القهوة ، وفى القطار ، وفى ديوان الوظيفة ، لا تجد الرافعى وحده الا وفى يده كتاب » « وكان اذا زاره زائر فى مكتبه جلس قليلا يحييه ويستمع لما يقوله « وكان يتحدث الى الآخرين أما الآخرون فيتحدثون اليه عن طريق الكتابة على الورق» ثم لا يلبث أن يتناول كتابا ويقول لمحدثه « تعال نقرأ ••• » ، وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعى ويستمع الضيف ، فلا يكف عن القراءة حتى يرى فى عينى محدثه معنى يشير الى ضرورة التوقف عن هذه القراءة » لأن الضيف يريد الانصراف •

قرأ الرافعى كثيرا ، واعتمد على نفسه اعتمادا كاملا فى تكوين ثقافته ، وحرص على البقاء فى طنطا البلد الذى استقر فيه أهله ، وبقى فى طنطا موظفا صغيرا فى وظيفة « كاتب بالمحكمة الشرعية ثم كاتب بالمحكمة الأهلية » وبقى فى هذه الوظيفة حتى نهاية حياته ، وحاول أصدقاؤه والمعجبون به أن ينقلوه الى القاهرة فرفض • وكان يرد تمسكه بالحياة فى طنطا الى أنها البلد الذى فيه قبر أمه وأبيه ، وهى البلد التى فيها مقام « السيد أحمد البدوى » ، وكان للرافعى « صلة روحية بالسيد البدوى ترتفع عن الجدل والمناقشة ، وله فيه مدائح وتوسلات شعرية ، وكان الرافعى اذا أم مسجد البدوى للصلاة اتخذ مجلسه تحت القبة فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وهو يهتز وعيناه مسبلتان فاذا فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح بيديه على صدره ، ثم يمضى وما تزال شفتاه تتحركان بكلام ، وكان بيت آل الرافعى القديم فى طنطا قريبا من

مسجد السيد البدوى ، فى حارة سيدى سالم ، وهى حارة قديمة ضيقة يقال ان السيد البدوى أوى اليها أول ما هبط الى طنطا منذ ألف سنة » (١) ٠

وقد تزوج الرافعى فى الرابعة والعشرين من أخت صديقه الأديب الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان، وصاحب أفضل شرح لديوان المتنبى ، وأنجب الرافعى من زواجه عشرة أبناء ٠

هذه هى ملامح عامة لحياة الرافعى ٠ فما هى الملامح الأدبية لشخصيته ؟

بدأ الرافعى حياته الأدبية سنة ١٩٠٠ وكان اهتمامه فى البداية منصرفا الى الشعر وحده ، وقد أصدر عدة دواوين شعرية منها « ديوان الرافعى » فى ثلاثة أجزاء ، ثم أصدر ديوانا اسمه « النظرات » ولقى شعره الاعجاب فى الأوساط الأدبية ، ورحب به زعماء الفكر والوطنية فى مصر فى ذلك الحين ، فقال عنه الشيخ محمد عبده فى رسالة اليه

« أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل، وأن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل» ٠

والشيخ محمد عبده يشير هنا الى « حسان بن ثابت » الذى كان شاعر الاسلام فى عهد الرسول ، يدافع عنه بشعره ضد أعدائه من المشركين ٠

---

(١) من كتاب « حياة الرافعى » للاستاذ محمد سعيد العريان وهو كتاب رائع وممتع ولا غنى عنه لمن يريد أن يتوسع فى معرفة حياة الرافعى وأدبه ٠ وقد اعتمدت عليه اعتمادا أساسيا فى كثير من المعلومات والتواريخ الواردة فى هذه المقدمة ٠

ويقول الزعيم مصطفى كامل عن الرافعي بعد أن قرأ شــعره: « ... سيأتى يوم اذا ذكر فيــه الرافعى قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة فى اجمــل قالب من البيان » .

وكان معظم شعر الرافعى يدور حول عاطفة الحب ، واستطاع الرافعى أن يجعل لشعره مكانة خاصة وصوتا مسموعا بين شــعراء جيله البارزين ومنهم شوقى وحافظ وخليل مطران وغيرهم ، وحظى بين هؤلاء الشعراء جميعا باحترام واعتراف أدبى كامل رغم أنه لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره بعد .

على أن الرافعى لم يســـتمر طويلا فى ميدان الشعر ، فقــد انصرف عن الشعر الى الكتابة النثرية ، وعندما نتوقف أمام ظاهرة انصرافه عن الشعر نجد انه كان على حق فى هــذا الموقف ، فرغم ما أنجزه في هذا الميدان الأدبي من نجاح ، ورغم انه استطاع ان يلفت الأنظار ، الا انه فى الواقع لم يكن يستطيع ان يتجاوز المكانة التى وصل اليها الشعراء الكبار فى عصره ، وخاصة شوقى وحافظ ، فقد أعطى هذان الشاعران الكبيران كل جهودهما للشعر ، وكسبا جماهير كبيرة جدا ، واصبح صوتهما أعلى الأصوات فى التعبير عن مشاعر الناس وهمومهم فى ذلك الجيل ، وقد تميز شــعر حافظ وشوقى بالسهولة والغزارة ، مما أتاح لهما القدرة على الانتشار بين القراء حتى لو كان هؤلاء القراء متوسطين فى ثقافتهم ، فأين يذهب الرافعى فى هذه المعركة الكبيرة ، وشعره لم يكن شعرا سهلا ، بل كان شعرا صعبا يحتاج الى ثقافة أدبية ولغوية عالية لكى يفهمه من يقـــرأه ، ولكى يتذوقه بعد ذلك ويستمتع به .

وقد أحس الرافعى فى نفسه بهذا الضــعف الشعرى الــذى يمكن أن يؤدى به فى آخر الأمر الى ان يكون شاعرا للخاصة وليس شاعرا جماهيريا واسع التأثير مثل شوقى وحافظ .

بالاضافة الى ذلك فان الرافعى كان يشعر فى أعماقه أن فن الشعر العربى بشكله التقليدى المعروف ليس الفن الذى يستطيع من خلاله أن يطلق كل مواهبه المحبوسة فى داخله ، ولعل أول صرخة اعتراض على الشعر العربى التقليدى فى أدبنا هو ما قاله الرافعى فى هذا المجال ، فقد كان يقول : « ان فى الشعر العربى قيودا لا تتيح له أن ينظم بالشعر كلما يريد أن يعبر به عن نفسه » وهذه القيود بالطبع هى الوزن والقافية ، ومعنى ذلك ببساطة ووضوح أن شاعرية الرافعى كانت من القوة بحيث لا يستطيع أن يعبر عنها فى اطار من القيود الشعرية المعروفة « بالوزن » و « القافية » ، وأن «الشاعرية» فى نفس الرافعى تستطيع أن تجد فرصتها بصورة أفضل وأعمق من خلال النثر الشعرى ٠

لست اشك فى أن « وقفة » الرافعى ضد قيود الشعر التقليدية كانت « اخطر » وأول وقفة عرفها الأدب العربى فى تاريخه الطويل ، واهمية هذه الوقفة انها كانت حوالى سنة ١٩١٠ ، أى فى أوائل هذا القرن ، وقبل ظهور معظم الدعوات الأدبية الأخرى التى دعت الى تحرير الشعر العربى تحريرا جزئيا او كليا من القافية والوزن ٠

وبعد هذه الوقفة التى وقفها الرافعى انتقل بنفسه وبأدبه الى ساحة اخرى هى التى حفظت له مكانته الخاصة المستقلة فى الأدب العربى المعاصر ، بل فى الأدب العربى كله منذ اقدم العصور الى الآن ، فقد انتقل الرافعى بكتابته الى ثلاثة ميادين أساسية هى :

الميدان الأول وهو ما يمكن ان نسمية باسم « النثر الشعرى » أو ما يسمى الآن باسم «قصيدة النثر» وفى هذا المجال ابدع عددا من الكتب الجميلة اهمها « حديث القمر » و « أوراق الورد » و « السحاب الأحمر » و « المساكين » ، ففى هـــذه الكتب جميعا كان الرافعى

شاعرا بدون قيود فقد تحرر تماما من الوزن والقافية ، وترك لنفسه حرية الكتابة عن مشاعره دون أن يتقيد بأى قيد تقليدى ، وكان كتابه « أوراق الورد » بالتحديد هو تصوير شعرى لتجربة عاطفية عاصفة عاشها الرافعى مع الأديبة اللبنانية التى عاشت فى مصر معظم عمرها « مارى زيادة » والمعروفة فى تاريخنا الأدبى باسم « مى » ، وقد كان الحب الذى عاشه الرافعى فى هذه التجربة حبا عنيفا جدا، ولكن المعركة كانت تدور فى نفسه وحده ، لأنه قطع صلته « بمى » عندما تصور أنها لا تهتم به الاهتمام الكافى وعاش بعد هذا « الانقطاع » عن حبيبته فى حرمان ولهفة شديدة ، عبر عنهما فى كتابه « أوراق الورد » الذى يحتاج بعد ذلك الى دراسة نفسية وأخرى جمالية ليس مجالهما هذه المقدمة ٠

ونفس ما يقال عن كتابة « أوراق الورد » يقال عن كتابه « السحاب الأحمر » وكلاهما تعبير شعرى حر عن عاطفة الحب الملتهبة فى قلب الرافعى ، وأهمية هذين الكتابين هو أنهما يسجلان تمرد الرافعى على الشكل التقليدى للشعر العربى من جانب ، ويعبران من جانب آخر عن قوة عاطفة الحب التى كانت تملأ قلب الرافعى نحو « مى » بطريقته الغريبة فى الحب ، والتى تقيدها قيود أخرى أكثر من «الوزن» و «القافية» وهى قيد التحفظ والخوف من الخطأ وقيد الكبرياء العاتية التى تجرحها أى اشارة أو أى موقف ولو كان صغيرا ، وهناك القيد الأكبر والأعظم فى حياة الرافعى وهو قيد « التدين الشديد » والذى يخشى من « الاثم » فى كل شىء الا فى «الكتابة» ، فقد كان الرافعى يعتبر الكتابة نوعا من الاعتراف والصدق مع النفس ، اما أن يعيش الحب فى تجربة واقعية مع امرأة أخرى غير زوجته بأى صورة من الصور ، فقد كان ذلك اثما غير مباح ، أما الكتابة العاطفية ، فانها عنده مما هو مباح ومشروع ٠

وكان للرافعى فى ذلك تصرفات تبدو غريبة جدا ، فقد كان يستأذن زوجته « فى الحب » ، وكان يطلعها على رسائله الى حبيبته ويطلعها أيضا على رسائل حبيبته اليه وكانت الزوجة الطيبة تقبل ذلك وترضاه لعلمها أن حدود حب الرافعى هى حدود الانفعال والتعبير عنه وأنه لا يخرج عن هذه الحدود بسبب « الرادع الدينى » عنده ٠

هذا هو الميدان الأول الذى انتقل اليه الرافعى من الشعر الذى كان مقيدا بالوزن والقافية ، انه ميدان النثر الشعرى الحر فى التعبير عن عواطفه العنيفة التى كانت تملأ قلبه ولا يتعداها الى اى تصرفات تخرج به عن حدود الالتزام الأخلاقى والدينى كما كان يتصوره ٠

أما الميدان الثانى الذى خرج اليه الرافعى فهو ميدان الدراسات الأدبية وأهمها كان كتابه عن « تاريخ آداب اللغة العربية » وهو كتاب بالغ القيمة ولعله كان أول كتاب فى موضوعه يظهر فى المكتبة العربية فى العصر الحديث لأنه ظهر فى أوائل القرن العشرين وبالتحديد سنة ١٩١١ ٠

ثم كتب الرافعى بعد ذلك كتابه المشهور « تحت راية القرآن » وفيه يتحدث عن اعجاز القرآن ، ويرد على آراء الدكتور طه حسين فى كتابه المعروف باسم « الشعر الجاهلى »

ثم يأتى الميدان الأخير الذى تجلت فيه عبقرية الرافعى ووصل فيه الى مكانته العالية فى الأدب العربى المعاصر والقديم ، وهو مجال المقال ، والذى أخلص له الرافعى فى الجزء الأخير من حياته وأبدع فيه ابداعا عجيبا ، وهذه المقالات هى التى جمعها الرافعى فى كتابه « وحى القلم » الذى نقدم اليك هنا مختارات منه ٠

مقالات الرافعى فى هذا الكتاب الذى صدر فى ثلاثة أجزاء هى مزيج من الشعر والاحساس والدراسة والبحث والخيال النادر والمعرفة الدقيقة بالتراث العربى والاسلامى ، وفى هذه المقالات أيضا كل القيم التى كان الرافعى يدعو اليها ويتحمس لها ويحاول أن ينبه مجتمعنا اليها ، وهى كلها قيم كريمة أصيلة ففيها الدعوة الى مقاومة الاحتلال الانجليزى ، وفيها الدعوة الى الشرف والاستقامة والنشاط والاجتهاد ، وفيها الدعوة الى البحث عن أمثلة عليا فى تاريخنا العربى والاسلامى نجد فيها الضوء والهدى للقوة والقدرة على الاحتمال والعمل على جعل الحياة عميقة ولها معنى وقيمة ٠

ويعتمد أسلوب الرافعى فى كتابه « وحى القلم » على « التصوير » أو بالأحرى « النحت » فهو ينحت الصور الجديدة اللامعة ، بحيث تبدو مقالته لوحة حية ذات الوان قوية مؤثرة ، ولا شك أن أسلوب الرافعى يبدو صعبا الآن على من تعودوا على القراءة السهلة ، وتعودوا على الجملة التى تنطق بمعناها من مجرد قراءة ألفاظها ، وليس الجملة التى تمتد بجذورها الى أعمق أعماق العقل والشعور والخيال ، والتى تحمل كثيرا من المعانى القوية الأصيلة ، ومثل هذه الجملة لا يمكن الاستمتاع بها الا اذا صبرنا على فهمها وتذوقها واكتشاف جذورها ، ولذلك تظل قراءة الرافعى صعبة ، ولكن صعوبتها تعطينا متعة أكبر وأعظم بعد أن نبذل جهدنا فى فهمها واستيعابها ٠

لقد كان الرافعى فارسا موهوبا وعظيما فى الدفاع عن العروبة والاسلام ، والدعوة الى الحضارة والعدالة والتقدم ، ورفض الخمول العقلى والاستسلام للأفكار التقليدية ، وعمل الرافعى دائما فى مقالاته التى يحملها « وحى القلم » على دفع الدماء بقوة الى شرايين تاريخنا ، حتى ينبض بالحياة ويؤثر فينا نحن

المعاصرين بمعانيه الانسانية الكبرى التى يكشفهـا الرافعى فى كتابته.

واذا كان الرافعى يبدو فى كل مقالة من مقالات « وحى القلم » صاحب أسلوب متميز بجماله ورقته وامتلائه بالصور الكثيرة الغزيرة التى تكاد تكون لونا من ألوان فن النحت فى أعلى صورة من صوره الجمالية البديعة ، فان الرافعى الى جانب ذلك كان يبنى مقالاته بناء فنيا خاصا لا يقل فى قيمته عن بناء الفن القصصى الرفيع الذى تقوم فيه القصة على شخصيات حية مرسومة بدقة ، وعلى حوار قوى يحمل فى كل سطر منه لمسة ساحرة تدل على ما تفكر فيـه شخصيات الرافعى وما تشعر به من أحاسيس مختلفة ، وبناء المقال عند الرافعى بشكله الشعرى القصصى ، وبشخصياته التى تنبض بالحياة ، وبحواره العميق الممتع الجذاب ، هذا البناء الفنى الخاص للمقال عند الرافعى يحمل هدفا واضحا ويؤدى رسـالة قوية ، فالرافعى يدعو الى نهضة الأمة ، ويدعو الى العدالة الاجتماعية ، ويدعو الى اخراج مبادئنا الدينية والوطنية والثقافية من الكتب الى الحياة ، لتكون بذلك مبادىء فعالة وقوية وأساسـية فى تطوير المجتمع وتغيير الشخصية العربية الخاملة الى شخصية عاملة ، لها فى حضارة الدنيا نصيب واسع ، ولها قدرة على مواجهـة مشاكلها والتصدى لأى عدوان يقع عليها ، ولها أيضا قدرة على نفض الغبار الكثيف الذى تراكم فوقهـا من آثار المـاضى فكاد يدفنها تحت التراب ، تدوسها كل الخيول العـابرة والجامحة التى استهانت بالعرب منذ أن سقطت الأندلس فى أيدى الأوربيين سنة ١٤٩٢ ، وبدأ بعدها العد التنازلى للحضارة العربية فأخذت تتدهور وتنهار يوما بعد يوم ، حتى وصلنا الى أوائل القـرن العشرين والعرب ممزقون الى قطع صغيرة يستولى عليها الاستعمار الغربى فى كل مكان فيستعبد الناس ويأكل كل الخيرات والثمرات التى تجود بها الأرض العربية .

ان الرافعى فى كتابه العظيم « وحى القلم » باجزائه الثلاثة يمثل هذا كله ، ولذلك ليس من المبالغة أن نقول ان « وحى القلم » هو احد الكتب القليلة التى يمكن اعتبارها جزءا من التراث الأدبى العربى الخالد فى عصرنا وفى كل العصور ، فهو كتاب متميز ونادر فى فنه واسلوبه وفكره ورسالته ، ولعل هذه المختارات التى تقدمها هيئة الكتاب اليوم من « وحى القلم » تغرى شبابنا على التوسع فى قراءة الرافعى وبخاصة فى كتابه « وحى القلم » باجزائه الثلاثة » ·

واخيرا لابد من الاشارة الى ان الرافعى كان له جانب خاص يتميز به تميزا واضحا هو جانب « الأناشيد الوطنية » فقد كتب عددا من الأناشيد الجميلة التى رددها شباب النصف الأول من القرن العشرين فى كل مكان ، وهناك نشيد منها مازلنا نذكره حتى اليوم ، وهو من تلحين الموسيقار « صفر على » وفيه يقول الرافعى :

حماة الحمى يا حماة الحمى
هلموا هلموا لمجد الزمن
فقد صرخت فى العروق الدما
نموت نموت ويحيا الوطن

واناشيد الرافعى الوطنية كثيرة ورائعة وياليتنا نعود اليها ونتغنى بها من جديد ، ولاشك أننا فاعلون عندما نفتح صفحة الرافعى مرة أخرى ونقرأ ما فيها من جمال ووطنية وعروبة وقيم اخلاقية واجتماعية وانسانية رفيعة ·

رجاء النقاش

نص كتاب الأستاذ الامام

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندى صادق الرافعى : زاده الله أدبا ..

لله ما أثمر أدبك ، ولله ما ضمن لى قلبك ، لا أقارضك ثناء بثناء ، فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء ، ولكنى أعدك من خلص الأولياء ، وأقدم صفك على صف الأقرباء .

وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق الباطل ، وان يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل . والسلام ..

٥ شوال سنة ١٣٢١ (*)

محمد عبده

(*) يوافق هذا التاريخ ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٠٣ للميلاد

تصـــــدير

محمد سعيد العريان

« ربما عابوا السمو الأدبى بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ، وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ، وبأنه محير، ولكن الحسن كذلك ، وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك ! »

الرافعى

هذا كتاب آخر كتاب انشأه الرافعى ، ففيه النفحة الأخيرة من أنفاسه ، والنبضة الأخيرة من قلبه ، والومضة الأخيرة من وجدانه .. ، أفرأيت الليل المطبق كيف تتروح نسماته الأخرى ، بعبير الشجر ، وتتندى أزهاره فى نسيم السحر ؟

ألا وانه الى ذلك أول كتاب أنشأه على أسلوبه وطريقته ، فقد عاش الرافعى ما عاش يكتب ما يكتب لنفسه وينشره لنفسه لا يعنيه مما يكتب وينشر الا أن يحيل فكرة فى رأسه أو لمحة فى خاطره أو خفقة فى قلبه ـ الى تعبير فى لسانه أو معنى فى ديوانه ، ولا عليه بعد ذلك أن يتأدى معناه الى قارئه كما أراده أو يغلق دونه ، فلما

اتصل سببه بمجلة «الرسالة» (*) رأى لقارئه عليه حقا أكثر من حق نفسه ، فكان أسلوبه الجديد الذى أنشأ به هذا الكتاب ٠

على أن هذا الكتاب ـ وشأنه ما قدمت ـ يجمع كل خصائص الرافعى الأدبية متميزة بوضوح ، فمن شاء فليقرأه دون سائر كتبه فسينكشف له الرافعى فى سائر كتبه ٠ والأديب الحق تستعلن نفسه بطريقتها الخاصة فى كل زمان ومكان على اختلاف أحـوالـه وما يحيط به ٠

★★★

والرافعى عند طائفة من قراء العربية أديب عسير الهضم ، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلف لا يصدر عن طبع ، وعند بعضهم غامض معمى لا تخلص اليه النفس ، ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب وذوى الذوق البيانى الخالص ، أديب الأمة العربية المسلمة ، يعبر بلسانها وينطق عن ذات نفسها ، فما يعيب عليه عائب الا من نقص فى وسائله ، أو كدرة فى طبعـــه ، أو لأن بينه وبين طبيعة النفس العربية المسلمة التى ينطبق الرافعى بلسانها ـ حجابا يباعد بينه وبين ما يقرأ روحا ومعنى !

فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعى ليتذوق أدبه فيأخذ عنـــه أو يحكم عليه ، فليستوثق من نفسه قبل ويستكمل وسائله ، فان

(*) اتصل الرافعى بمجلة الرسالة قبيل موته بثلاث سنين ، وكان ذلك أول اشتغاله بالصحافة ، فلم يكن له قبلها صلة « صحافية » بجريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات ، وقد كان لذلك أثره فى أسلوبه من قبل ومن بعد ، الى أسباب أخرى ٠ وانظر « فترة جمام » و « عمله فى الرسالة » و « نقلة اجتماعية » من كتابنا « حياة الرافعى » ٠

اجتمعت له اداته من اللغة والذوق البيانى ، وأحس احساس النفس العربية المسلمة فيما تحب وما تكره وما يخطر فى أمانيها ـ فذوقه ذوق وحكمه حكم ، والا فليسقط الرافعي من عداد من يقرأ لهـم ، او فليسقط نفسه من عداد هذه الأمة .

★★★

على انه اذا حق لنا ان نرتب كتب الرافعى ترتيبا يعين قارئه على تذوقه او دراسة ادبه ، فان [وحى القلم] فى رأس هـــذا الثبت ـ هو آخر ما أنشأ ولكنه أول ما ينبغى ان يقرأ له ، وان البدء به لحقيق أن يعود قارئه أسلوب الرافعي فيسلس له صعبه وينقاد !

★★★

ذلك مجمل الرأى فى أسلوب هذا الكتاب ؛ على أن قارئه قد يقف منه عند مواضع فيسأل نفسه : كيف تأتى للرافعى ان يعـالج موضوعه على هذا الوجه ؟ كيف تهيأ له ذلك المعنى ؟ وأين ومتى اجتمعت له هذه الخواطر ؟ وفى أى أحواله كان يكتب ؟ وعلى أى نسق كان يؤلف موضوعه ويجمع اشتاته ويحشد خواطره ويصنف عبارته ؟ ..

... ولست ارى من حقى أن أطيل القول هنا فى هذا الباب وقد ذكرته هناك (*) ، وان موضوع الكتاب لهو الحقيق بالدرس والعناية .

والكتاب كما قد يشعر به عنوانه ، هـــو مجموعـــة فصـــول ومقالات وقصص ، من وحى القلم وفيض الخاطر فى ظـــروف

(*) انظر « فترة جمام » و « نقلة اجتماعية » من كتابنا « حياة الرافعى »

متباينة ، وأكثره مما كتبه لمجلة الرسالة بين سنتى ١٩٣٤ و ١٩٣٧ : ولكل فصل أو مقالة أو قصة من هذه المجموعة ، سبب أوحى اليه موضوعها وأملى عليه القول فيها ؛ ولقد كنت على أن أثبت عند رأس كل موضوع منها باعثه وحادثته ، لعل من ذلك نورا يكشف عن معنى مغلق أو يوضح فكرة يكتنفها بعض الغموض ؛ ولكن بعض الضرورات قد الزمتنى أن أقتصد فى البيان هنا اكتفاء بما بينته فى موضعه وأشرت اليه فى هامش موضوعه ٠

ولقد يقرأ القارئ بعض القصص فى هذا الكتاب ، فيسأل عند بعضها : أهذا حق يرويه أم باطل يدعيه ؛ ويسأل عند بعضها : أهذا مما ينقل من مأثورات الأدب والتاريخ القديم ، أم انشأ مما يبدعه الخيال وتوشيه الصنعة ؟ ثم يقرأ رأى الرافعى فى القصة وكتاب القصة (*) فيقول : أين رأيه من حقيقته وأين عمله من دعواه ؟

ولهذه القصص حديث يطول ؛ ولكن حسبى أن أقول أن الرافعى وان هجر القصة ولم يحفل بها زمانا ، فقد كانت القصة فى أدبه وفى طبعه (**)

وكما قلت من قبل : أن هذا الكتاب يجمع كل خصائص الرافعى الأدبية متميزة بوضوح فى أسلوبه ـ كذلك أقول هنا أنه يجمع كل خصائصه العقلية والنفسية متميزة بوضوح فى موضوعه : ففيه خلقه ودينه ، وفيه شبابه وعاطفته ، وفيه تزمته ووقاره ، وفيه فكاهته ومرحه ، وفيه غضبه وسخطه ؛ فمن شاء أن يعرف الرافعى عرفان الرأى والفكر والمعاشرة فليعرفه فى هذا الكتاب ٠

(*) الجزء الثالث من وحى القلم ٠

(**) انظر « فترة جمام » و « قصص الرافعى » من كتابنا «حياة الرافعى»

وهذه هى الطبعة الثالثة لهذا الكتاب فى جزأيه الأول والثانى، أتولاه كما توليت الطبعة الأولى فى حياة المؤلف ٠

أما الجزء الثالث فقد خلف المؤلف (رحمه الله) على مكتبه قصاصات من صحف وصفحات من كتب ومجلات فعاد كتابا بين دفتين ، وقد رتبت فصوله على ما بدا لى ، اذا لم أجد فيما خلف المؤلف من أوراق ما يشير الى رأيه فى ترتيبه ، ولكنه جمع أكثر مواده فى غلاف وأودعه درج مكتبه الى ميعاد ، ثم عاجلته منيته ، وقد جمعت ما قدرت عليه بعد فأضفته الى جمع المؤلف ، ورتبت كل ذلك وهيأته للمطبعة فان كان قد فاتنى شىء مما ينبغى اضافته الى ذلك الجزء ، أو قصر بى الجهد عن ترتيبه على الوجه الأمثل ، فمعذرة الى قارئه ؛ ولعلنى ــ بمعونة القراء ــ استدرك الطبعات التاليــة ــ ان شاء الله ــ ما فاتنى فى هذه الطبعة ٠

★★★

وللمؤلف فى ذيل بعض الصحائف تعليقات ، ولى تعليقات غيرها اقتضاها مكانها وموضوعها ، فاذا رأى القارىء رمز التعليق فى الصلب وفى الهامش نجما أو نجوما (*) فهو مما علقته ، وان كان الرمز رقما فهو مما علقه المؤلف (رحمه الله) لبيان معنى أو تفسير كلمة ٠

وان فى الكتاب لفنا وفكرا وبيانا ، وان فيه لمواضع تقتضى البسط والتطويل فى الحديث ، وان فيه لمذاهب فى الانشاء حقيقة بالدرس والنظر ، ولكنى اجتزىء من ذلك كله بالعرض دون البيان، لأدع لقارئه أن يقول ما يشاء ويحكم ؛ ثم لأفسح المكان لمنشىء الكتاب أن يتحدث عن مذهبه فى البيان وهو عليه أقدر ٠٠

محمد سعيد العريان

صــــدر الكتاب

البيــــــان

لا وجود للمقالة البيانية الا فى المعانى التى اشتملت عليها ، يقيمها الكاتب على حدود ويديرها على طريقة ، مضنيا بالفاظه مواقع الشعور ، مثيرا بها مكامن الخيال ، آخذا بوزن تاركا بوزن ، لتأخذ النفس كما تشاء وتترك .

ونقل حقائق الدنيا نقلا صحيحا الى الكتابة او الشعر ، هو انتزاعها من الحياة فى اسلوب واظهارها للحياة فى اسلوب آخر يكون اوفى وأدق وأجمل ، لوضعه كل شىء فى خاص معناه ، وكشفه حقائق الدنيا كشفة تحت ظاهرها الملتبس ؛ وتلك هى الصناعة الفنية الكاملة : تستدرك النقص فتتممه ، وتتناول السر فتعلنه ، وتلمس المقيد فتطلقه ، وتأخذ المطلق فتحده ، وتكشف الجمـــال فتظهره ، وترفع الحياة درجة فى المعنى ، وتجعل الكلام كأنه وجد لنفســـه عقلا يعيش به .

فالكاتب الحق لا يكتب ، ولكنه أداة فى يد القوة المصـــورة لهذا الوجود ، تصور به شيئا من أعمالها فنا من التصوير.(*)

(*) مقدمة الطبعة الأولى : للمؤلف .

الحكمة الغامضة تريده على التفســـير ، تفسير الحقيقة ؛ والخطأ الظاهر يريده على التبيين ، تبين الصــــواب ؛ والفوضى المائجة تسأله الاقرار ، اقرار التناسب ؛ وما وراء الحياة ، يتخذ من فكره صلة بالحياة : والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلة نفسية لتعلو به أو تنـــزل • ومن ذلك لا يخلق الملهم أبدا الا وفيه أعصـــابه الكهربائية ، وله فى قلبه الرقيق مواضع مهيأة للاحراق ، تنفذ اليها الأشعه الروحانية وتتساقط منها بالمعانى •

واذا اختير الكاتب لرسالة ما ، شعر بقوة تفرض نفسها عليه، منها اسناد رأيه ، ومنها اقامة برهانه ، ومنها جمـال ما يأتى به ، فيكون انسانا لأعماله وأعمالها جميعا ، له بنفسه وجود ، وله بهـا وجود آخر ، ومن ثم يصبح عالما بعناصره للخير او الشر كمـــا يوجه ، ويلقى فيه مثل السر الذى يلقى فى الشجرة لاخراج ثمرها بعمل طبيعى يرى سهلا كل السهل حين يتم ، ولكنــه صعب أى صعب حين يبدأ •

هذه القوة هى التى تجعل اللفظة المفردة فى ذهنه معنى تاما، وتحول الجملة الصغيرة الى قصة ، وتنتهى باللمحة السريعة الى كشف عن حقيقة ، وهى تخرجه من حكم اشياء ليحكم عليها ، وتدخله فى حكم أشياء غيرها لتحكم عليه ، وهى هى التى تميز طـريقته واسلوبه ، وكما خلق الكون من الاشعاع فى بيانه (١) •

ولابد من البيان فى الطبائع الملهمة ليتســع به التصرف ، ان الحقائق أسمى وأدق من أن تعـــرف بيقين الحاسة أو تنحصر فى ادراكها ، فلو حدث الحقيقة لما بقيت حقيقة ، ولو تلبس الملائكة بهذا

---

(١) ثبت أن الاشعاع هو المادة التى صنع منها الكون •

اللحم والدم لبطل أن يكونوا ملائكة ، ومن ثم فكثرة الصور البيانية الجميلة ، للحقيقة الجميلة ، هى كل ما يمكن أو يتسنى من طـريقة تعريفها للانسـانية ٠

وأى بيـان فى خضـرة الربيع عند الحيـوان من أكل العشب ، الا بيان الصورة الواحدة فى معدته ؟ غير أن صور الربيع فى البيان الانسانى على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد أزهاره ، ويكاد الندى ينضرها حسنا كما ينضره ٠

ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى ، كالايمـان ، والجمال ، والحب ، والخير ، والحق ـ ستبقى محتاجة فى كل عصر الى كتابة جديدة من أذهان جديدة ٠



وفى الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتى ألفاظهم ومعانيهم فنا عقليا غايته صحة الأداء وسلامة النسـق ، فيكون البيان فى كلامهم على ندرة كوخز الخضرة فى الشـجرة اليابسة هنا وهنا ، ولـكن الفن البيـانى يرتفع على ذلك بأن غايته قـوة الأداء مـع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة ، وابداع الصورة زائدا جمـال الصورة ، أولئك فى الكتابة كالطير له جناح يجرى به ويدف ولا يطير ، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجرى ٠ ولو كتب الفريقان فى معنى واحد لرأيت المنطق فى أحد الأسلوبين وكأنه يقول: انا هنا فى معان وألفاظ ٠ وترى الالهام فى الأسلوب يطالعك أنه هنا فى جلال وجمال ، وفى صور وألوان ٠

ودورة العبارة الفنية فى نفس الكاتب البيانى ، دورة خـلق وتركيب ، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هى ، كأنها شبت فى نفسـه

شبابا ، وأقوى مما هى ، كأنما كسبت من روحه قوة ، وأدل مما هى، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة ، فالكاتب العلمي تمر اللغة منه فى ذاكرة وتخرج كما دخلت ، عليها طابع واضعيها ، ولكنها من الكاتب البيانى تمر فى مصنع ، وتخرج عليها طابعه هو : أولئك أزاحوا اللغة عن مرتبة سامية ، وهؤلاء علوا بها الى أسمى مراتبها ، وأنت مع الأولين بالفكر ، ولا شيء الا الفكر والنظر والحكم ، غير أنك مع ذى الحاسة البيانية لا تكون الا بمجموع مافيك من قوة الفكر والخيال والاحساس والعاطفة والرأى ٠

وللكتابة التامة المفيدة مثل الوجهين فى خلق الناس : ففى كل الوجوه تركيب تام تقوم به منفعة الحياة ، ولكن الوجه المنفرد يجمع الى تمام الخلق جمال الخلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة ، وهو لذلك ، وبذلك ، يرى ويؤثر ويعشق ٠

وربما عابوا السمو الأدبى بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ، وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ، وبأنه محير ، ولكن الحسن كذلك وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك ٠

ان لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ ، وان لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع ، وان لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد ، وان لم يكن الكاتب البيانى فلا تنتظر الأدب ٠٠

مصطفى صادق الرافعى

اليمـــامتان

جاء فى تاريخ الواقـدى ..

« ان المقوقس عظيم القبط فى مصر زوج بنته أرمانوسة من من قسطنطين ابن هرقل ، وجهزها بأموالها وحشمها لتسير اليه ، حتى يبنى عليها فى مدينة قيسارية ، فخـرجت الى بلبيس وأقامت بها (١) .. وجاء عمرو بن العاص الى بلبيس فحـاصرها حصارا شديدا ، وقاتل من بها ، وقتل منهم زهـاء الف فارس ، وانهزم من بقى الى المقوقس. وأخذت أرمانوسة وجميع مالها ، وأخذ كل ما كان للقبط فى بلبيس ، فأحب عمرو ملاطفة المقـوقس ، فسـير اليه ابنته مكرمة فى جميع مالها ، مع قيس بن أبى العاص السهمى ، فسـر بقـدومها .. »

★★★

هذا ما اثبته الواقدى فى روايته ، ولم يكن معليا الا بأخبار المغازى والفتوح ، فكان يقتصر عليها فى الرواية ، أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن :

---

(١) قيسارية : بلدة بفلســطين . وبلبيس هى المدينـة المعروفة بمديرية الشرقية بمصر .

كانت لأرمانوسة وصيفة مولدة تسمى مارية ، ذات جمال يونانى أتمته مصر ومسحته بسحرها ، فزاد جمالها على أن يكون مصريا ، ونقص الجمال اليونانى أن يكونه ، فهو أجمل منهما، ولمصر طبيعة خاصة فى الحسن ، فهى قد تهمل شيئا فى جمال نسائها ، أو تشعث منه ، وقد لا توفيه جهد محاسنها الرائعة ، ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع الى أصل أجنبى ، افرغت فيه سحرها افراغا، وأبت الا ان تكون الغالبة عليه ، وجعلته آيتها المقابلة بينه فى طابعه المصرى ، وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنة ما كانت ، تغار على سحرها أن يكون الا الأعلى !



وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدين والعقل ، اتخذها المقوقس كنيسة حية لابنته ، وهو كان واليا وبطريركا على مصر من قبل هرقل ، وكان من عجائب صنع الله أن الفتح الاسلامى جاء فى عهده ، فجعل الله قلب هذا الرجل مفتاح القفل القبطى ، فلم تكن ابوابهم تدافع الا بمقدار ما تدفع : تقاتل شيئا من قتال غير كبير ، أما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة حصينة لا تذعن الا للتحطيم ، وراءها نحو مائة ألف رومى يقاتلون المعجزة الاسلامية التى جاءتهم من بلاد العرب أول ما جاءت فى أربعة آلاف رجل ، ثم لم يزيدوا آخر ما زادوا على اثنى عشر ألفا · كان الروم مائة ألف مقاتل بأسلحتهم ، ولم تكن المدافع معروفة ، ولكن روح الاسلام جعلت الجيش العربى كأنه اثنا عشر ألف مدفع بقنابلها ، لا يقاتلون بقوة الانسان ، بل بقوة الروح الدينية التى جعلها الاسلام مادة متفجرة تشبه الديناميت قبل أن يعرف الديناميت !

ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس ، جزعت مارية جزعا شديدا اذا كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قوم

جياع ، ينفضهم الجدب على البـــلاد نفض الرمال على الأعين فى الريح العاصف ، وانهم جراد انسانى لا يغزو الا لبطنه ، وانهم غلاظ الأكباد كالابل التى يمتطونها ، وأن النساء عندهم كالدواب يرتبطن على خسف ، وانهم لا عهد لهم ولا وفاء ، ثقلت مطامعهم ، وخفت أمانتهم ، وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزارا فى الجاهلية ، فما تدعه روح الجزار ولا طبيعته ، وقد جاء بأربعة آلاف سالغ من أخلاط الناس وشذاذهم ، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظـــام الجيش ·

وتوهمت مارية أوهـــامها ، وكانت شـــاعرة قد درســت هى وأرمانوسة أدب يونان وفلسفتهم ، وكان لها خيال مشـــوب متوقد يشعرها كل عاطفة أكبر مما هى ، ويضاعف الأشياء فى نفســها ، وينزع الى طبيعته المؤنثة ، فيبالغ فى تهويل الحزن خاصة ، ويجعل من بعض الألفاظ وقودا على الدم ··

ومن ذلك استطير قلب مارية وأفزعتها الوســـاوس ، فجعلت تندب نفسها ، وصنعت فى ذلك شعرا هذه ترجمته :

« جاءك أربعة آلاف جزار أيتها الشاة المسكينة !

« ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تذبحى !

« جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة !

« ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت !

« قونى ياالهى ، لأغمد فى صدرى سكينا يرد عنى الجزارين !

« يا الهى ! قو هذه العذراء ، لتتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربى ·· ! »



وذهبت تتلو شعرها على أرمانوسة فى صوت حزين يتوجع ، فضحكت هذه وقالت : أنت واهمة يامارية ؟ انسيت أن أبى قد أهدى الى نبيهم بنت (أنصنا) (٢) ، فكانت عنده فى مملكة بعضها السماء وبعضها القلب ؟ لقد أخبرنى أبى أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبى ، وأنها أنفذت اليه دسيسا يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذى سيضع فى العالم تمييزه بين الحق والباطل ، وأن نبيهم أطهر من السحابة فى سمائها ، وأنهم جميعا ينبعثون من حدود دينهم وفضائله ، لا من حدود أنفسهم وشهواتهم ، واذا سلوا السيف بقانون ، واذا أغمدوه أغمدوه بقانون ٠

وقالت عن النساء : لأن تخاف المرأة على عفتها من أبيها ، أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبى ، فانهم جميعا فى واجبات القلب وواجبات العقل ، ويكاد الضمير الاسلامى فى الرجل منهم يكون حاملا سلاحا يضرب صاحبه اذا هم بمخالفته ٠

وقال أبى : أنهم لا يغيرون على الأمم ، ولا يحاربونها حرب الملك ، وانما تلك طبيعة الحرية للشريعة الجديدة : تتقدم فى الدنيا حاملة السلاح والأخلاق ، قوية فى ظاهرها وباطنها ، فمن وراء اسلحتهم أخلاقهم ، وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق !

وقال أبى : ان هذا الدين سيندفع بأخلاقه فى العالم اندفاع العصارة الحية فى الشجرة الجرداء : طبيعة تعمل فى طبيعة ، فليس يمضى غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمى ظلالها ، وهو بذلك فوق السياسات التى تشبه فى عملها الظاهر الملفق ما يعد كطلاء الشجرة الميتة الجرداء بلون أخضر ٠٠٠ ! شتان بين عمل وعمل، وان كان لون يشبه لونا ٠٠٠

(٢) هى مارية القبطية التى أهداها المقوقس الى النبى صلى الله عليه وسلم وكانت من أنصنا بالوجه القبلى ٠

فاستروحت مارية واطمأنت باطمئنان أرمانوسة ، وقالت : فلا ضير علينا اذ فتحوا البلد ، ولا يكون ما نستضر به ؟

قالت أرمانوسة : لا ضير يا مارية ، ولا يكون الا ما نحب لأنفسنا ، فالمسلمون ليسوا كهؤلاء الملوك من الروم ! يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص عليه ، والحاجة الى حلاله وحرامه ، فهم القساة الغلاظ المستكلبون كالبهائم ، ولكنهم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص عليه ، والحاجةفاىتعععليه:اظبتةووببدى را؛ بفكرة الاستغناء عنه ، والتمييز بين حلاله وحرامه ، فهم الانسانيون الرحماء المتعففون ٠

قالت مارية : وأبيك يا أرمانوسة ان هذا لعجيب ! فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء ، وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم الا الكتب التى كتبوها ٠٠٠ ! فلم يخرجوا للدنيا جماعة تامة الانسانية ، فضلا عن أمه كما وصفت أنت من أمر المسلمين : فكيف استطاع نبيهم أن يخرج هذه الأمة ، وهم يقولون انه كان أميا ؟ أفتسخر الحقيقة من كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير ، فتدعهم يعملون عبثا أو كالعبث ، ثم تستسلم للرجل الأمى الذى لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم ؟

قالت ارمانوسة : ان العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلاكها ، ليسوا هم الذين يشقون الفجر ويطلعون الشمس ، وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعية بفطرتها ، يكون عملها فى الحياة ايجاد الأفكار العملية الصحيحة التى يسير بها العالم ، وقد درست المسيح وعمله وزمنه فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة ،

غير أنه أوجدها مصغرة فى نفسه وحوارييه ، وكان عمله كالبدء فى تحقيق الشيء العسير : حسبه أن يثبت معنى الامكان فيه ٠

وظهور الحقيقة من هذا الرجل الأمى ، هو تنبيه الحقيقة الى نفسها ، وبرهانها القاطع أنها بذلك فى مظهرها الالهى ؛ والعجيب يامارية ، أن هذا النبى قد خذله قومه وناكروه وأجمعوا على خلافه ، فكان فى ذلك كالمسيح ، غير أن المسيح انتهى عند ذلك ٠ أما هذا فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع : لا يرتد ولا يتغير ، وهاجر من بلده ، فكان ذلك أول خطا الحقيقة التى أعلنت أنها ستمشى فى الدنيا ، وقد أخذت من يومئذ تمشى (٢) ٠

ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلها لهاجرت به كذلك ؛ فهـذا فرق آخر بينهما ٠

والفرق الثالث أن المسيح لم يأت الا بعبادة واحدة ، هى عبادة القلب ؛ أما هذا الدين فعلمت من أبى أنه ثلاث عبادات يشد بعضها بعضا : احداها للأعضاء ، والثـانية للقـلب ، والثالثـة للنفس ؛ فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط ؛ وعبادة القلب طهارته وحبه الخير ؛ وعبادة النفس طهارتها وبذلها فى سبيل الانسانية ؛ وعند أبى أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا ، فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجانبين وأسعدهما ٠

قالت مارية : ان هذا والله لسر الهى يدل على نفسه ، فمن طبيعة الانسان الا تبعث نفسه غير مبالية الحياة والموت الا فى أحوال قليلة تكون طبيعة الانسان فيها عمياء : كالغضب الأعمى ،

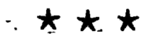
---

(٢) انظر المقالات النبوية فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

والحب الأعمى ، والتكبر الأعمى ؛ فاذا كانت هذه الأمة الاسلامية كما قلت منبعثة هذا الانبعاث ، ليس فيها الا الشعور بذاتيتها العالية ، فما بعد ذلك دليل على أن هذا الدين هو شعور الانسان بسمو ذاتيته ، وهذه هى نهاية النهايات فى الفلسفة والحكمة ٠

قالت أرمانوسة : وما بعد ذلك دليل على أنك تتهيئين أن تكونى مسلمة يا مارية ٠٠٠ !

فاستضحكتا معا ، وقالت مارية : انما ألقيت كلاما جاريتك فيه بحسبه فأنا وأنت فكرتان ، لا مسلمتان ٠



قال الراوى : وانهزم الروم عن بلبيس ، وارتدوا الى المقوقس فى منف ، وكان وحى أرمانوسة فى مارية مدة الحصار ـ وهى نحو الشهر ـ كأنه فكر سكن فكرا وتمدد فيه ؛ فقد مر ذلك الكلام بما فى عقلها من حقائق النظر فى الأدب والفلسفة ، فصنع ما يصنع المؤلف بكتاب ينقحه ، وأنشأ لها أخيلة تجادلها وتدفعها الى التسليم بالصحيح لأنه صحيح ، والمؤكد لأنه مؤكد ٠

ومن طبيعة الكلام اذا أثر فى النفس ، أن ينتظم فى مثل الحقائق الصغيرة التى تلقى للحفظ ؛ فكان كلام أرمانوسة فى عقل مارية هكذا :

« المسيح بدء وللبدء تكملة ، مامن ذلك بد »

« لا تكون خدمة الانسانية الا بذات عالية لا تبالى غير سموها » ٠

« الأمة التى تبذل كل شىء وتستمسك بالحياة جبنا وحرصا ، لا تأخذ شيئا ؛ والتى تبذل أرواحها فقط ، تأخذ كل شىء » ٠

وجعلت هذه الحقائق الاسلامية وأمثالها تعرب هذا العقل اليونانى ، فلما أراد عمرو بن العاص توجيه أرمانوسة الى أبيها ، وانتهى ذلك الى مارية ، قالت لها : لا يجمل بمن كانت مثلك فى شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة ، تتوجه حيث يسار بها ، والرأى أن تبدئى هذا القائد قبل أن يبدأك ؛ فأرسلى اليه فأعلميه أنك راجعة الى أبيك ، واسأليه أن يصحبك بعض رجاله ؛ فتكونى الآمرة حتى فى الأسر ، وتصنعى صنع بنات الملوك !

قالت أرمانوسة : فلا أجد لذلك خيرا منك فى لسانك ودهائك ، فاذهبى اليه من قبلى ، وسيصحبك الراهب (شطا) ، وخذى معك كوكبة من فرساننا ٠٠٠



٠٠٠ قالت مارية وهى تقص على سيدتها :

لقد أديت اليه رسالتك فقال : كيف ظنها بنا ؟ قلت : ظنها بفعل رجل كريم يأمره اثنان : كرمه ، ودينه ٠ فقال : أبلغيها أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال : استوصوا بالقبط خيرا فان لهم فيكم صهرا وذمة ٠ وأعلميها أننا لسنا على غارة نغيرها ، بل على نفوس نغيرها ٠

قالت : فصفيه لى يامارية ٠

قالت : كان آتيا فى جماعة من فرسانه على خيولهم العراب ، كأنها شياطين تحمل شياطين من جنس آخر ، فلما صار بحيث أتبينه أومأ اليه الترجمان ــ وهو وردان مولاه ــ فنظرت ، فاذا هو على

فرس كميت أحم (٤) لم يخلص للأسود ولا للأحمر ، طويل العنق مشرف له ذؤابة أعلى ناصيته كطرة المرأة ، ذيال يتبختر بفارسه ويحمحم كأنه يريد أن يتكلم ، مطهم ...

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت : ما سألتك صفة جواده ...

قالت مارية : أما سلاحه ...

قالت : ولا سلاحه ، صفية كيف رأيته : هو ... ؟

قالت : رأيته قصير القامة ، علامة قوة وصلابة ؟ وافر الهامة ، علامة عقل واردة ، أدعج العينين ...

فضحكت أرمانوسة وقالت : علامة ماذا ؟ ...

... أبلج يشرق وجهه كأن فيه لألاء الذهب على الضوء ، أبدا اجتمعت فيه القوة حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمرا ... داهية كتب دهاؤه على جبهته العريضة يجعل فيها معنى يأخذ من يراه ؛ وكلما حاولت أن أتفرس فى وجهه رأيت وجهه لا يفسره الا تكرار النظر اليه ...

وتضرجت وجنتاها ، فكان ذلك حديثا بينها وبين عينى ارمانوسة ...

وقالت هذه : كذلك كل لذة لا يفسرها للنفس الا تكرارها ... !

فغضب منه ، وقد كدت أنكر أنه انسان لما اعترانى من هيبته ...

قالت ارمانوسة : من هيبته أم من عينيه الدعجاوين ... !

★ ★ ★

---

(٤) الكميت الأحم : هو الأحمر الضارب للسواد ، لا يخلص لأحد اللونين ، فاذا كان أحمر خالصا قيل فيه : كميت مد فى (بتشديد الميم الثانية وفتحها) .

... ورجعت بنت المقوقس الى أبيها فى صحبة قيس ، فلما كانوا فى الطريق وجبت الظهر ، فنزل قيس يصلى بمن معه والفتاتان تنظران : فلما صاحوا : « الله أكبر ... ! » ارتعش قلب مارية ، وسألت الراهب شطا ، ماذا يقولون ؟ قال : ان هذه كلمة يدخلون بها صلاتهم ، كأنما يخاطبون بها الزمن أنهم الساعة فى وقت ليس منه ولا من دنياهم ، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدى من هو أكبر من الوجود ؛ فاذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت ، فذلك هو دخولهم فى الصلاة ؛ كأنهم يمحون الدنيا من النفس ساعة أو بعض ساعة ، ومحوها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها ؛ أنظرى ، ألا ترين هذه الكلمة قد سحرتهم سحرا ، فهم لا يلتفتون فى صلاتهم الى شىء ، وقد شملتهم السكينة ورجعوا غير من كانوا ، وخشعوا خشوع أعظم الفلاسفة فى تأملهم ؟ (٥) .

قالت مارية : ما أجمل هذه الفطرة الفلسفية ! لقد تعبت الكتب لتجعل أهل الدنيا يستقرون ساعة فى سكينة الله عليهم ، فما أفلحت : وجاءت الكنيسة فهولت على المصلين بالزخارف والصور والتماثيل والألوان ، لتوحى الى نفوسهم ضربا من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الدينى ، وهى بذلك تحتال فى نقلهم من جوهم الى جوها ؛ فكانت كساقى الخمر : ان لم يعطك الخمر عن اعطائك النشوة ؛ ومن ذا الذى يستطيع أن يحمل معه كنيسة على جواد أو حمار ؟

قالت أرمانوسة : نعم ان الكنيسة كالحديقة ؛ هى حديقة فى مكانها ، وقلما توحى شيئا الا فى موضعها ، فالكنيسة هى الجدران الأربعة : أما هؤلاء فمعبدهم بين جهات الأرض الأربع .

---

(٥) انظر مقالة (حقيقة المسلم) فى الجزء الثانى .

قال الراهب شطا : ولكن هؤلاء المسلمين متى فتحت عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها ، فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاة يومئذ ٠

قالت مارية : وهل تفتح عليها الدنيا ؛ وهل لهم قواد كثيرون كعمرو ٠٠٠ ؟

قال : كيف لا تفتح الدنيا على قوم لا يحاربون الأمم ، بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة ؛ وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموج فى المد المرتفع : ليس فى داخلها الا أنفس مندفعة الى الخارج عنها ، ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمما ليس فى الداخل منها الا النفوس المستعدة أن تهرب الى الداخل ٠٠٠ !

قالت مارية : والله لكأننا ثلاثتنا على دين عمرو ٠٠٠

★ ★ ★

وانفتل قيس من الصلاة ، وأقبل يترحل ، فلما حاذى مارية كان عندها كأنما سافر ورجع ، وكانت ما تزال فى أحلام قلبها ، وكانت من الحلم فى عالم أخذ يتلاشى الا من عمرو وما يتصل بعمرو ٠

وفى هذه الحياة أحوال ثلاث يغيب فيها الكون بحقائقه : فيغيب عن السكران ، والمخبول ، والنائم ؛ وفيها حالة رابعة يتلاشى فيها الكون الا من حقيقة واحدة تتمثل فى انسان محبوب ٠

وقالت مارية للراهب شطا : سله : ما أربهم من هذه الحرب ؟ وهل فى سياستهم أن يكون القائد الذى يفتح بلدا ، حاكما على هذا البلد ٠٠٠ ؟

قال قيس : حسبك أن تعلمى أن الرجل المسلم ليس الا رجلا عاملا فى تحقيق كلمة الله ، أما حظ نفسه فهو فى غير هذه الدنيا ٠

وترجم الراهب كلامه هكذا : أما الفاتح فهو فى الأكثر الحاكم المقيم ، وأما الحرب فهى عندنا الفكرة المصلحة تريد أن تضرب فى الأرض وتعمل ، وليس حظ النفس شيئا يكون من الدنيا ، وبهذا تكون النفس أكبر من غرائزها ، وتنقلب معها الدنيا برعونتها وحماقاتها وشهواتها كالطفل بين يدى رجل : فيها قوة ضبطه وتصريفه ؛ ولو كان فى عقيدتنا أن ثواب أعمالنا فى الدنيا ، لا تعكس الأمر ٠

قالت مارية : فسله كيف يصنع عمرو بهذه القلة التى معه ، والروم لا يحصى عددهم ؟ فاذا أخفق عمرو فمن عسى أن يستبدلوه منه ، وهل هو أكبر قوادهم أو فيهم أكبر منه ٠

قال الراوى : ولكن فرس قيس تمطر وأسرع فى لحاق الخيل على المقدمة كأنه يقول : لسنا فى هذا ٠٠٠ !



وفتحت مصر صلحا بين عمرو والقبط ، وولى الروم مصعدين الى الاسكندرية ؛ وكانت مارية فى ذلك تستقرى أخبار الفاتح تطوف منها على أطلال من شخص بعيد ، وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملك الا حبه أن يأخذها ، وجعلت تذوى ، وشحب لونها ، وبدأت تنظر النظرة التائهة ، وبأن عليها أثر الروح الظمآى ، وحاطها اليأس بجوه الذى يحق الدم ، وبدت مجروحة المعانى ، اذ كان يتقابل فى نفسها الشعوران العدوان : شعور أنها عاشقة ، وشعور أنها يائسة !

ورقت لها أرمانوسة ، وكانت هى أيضا تتعلق فتى رومانيــا ، فسهرتا ليلة تدبران الرأى فى رسالة تحملها مارية من قبلها الى عمرو كى تصل اليه ، فاذا وصلت بلغت بعينيها رسالة نفسها ٠٠٠

واستقر الأمر أن تكون المسألة عن مارية القبطيــة وخبرها ونسلها وما يتعلق بها : مما يطول الاخبار به اذا كان السؤال من امرأة عن امرأة ، فلما أصبحتا وقع اليهما أن عمرا قد سار الى الاسكندرية لقتال الروم ، وشاع الخبر أنه لما أمر بفســطاطه أن يقوض أصابوا يمامة قد باضت فى أعلاه ، فأخبروه ، فقــال : « قد تحرمت فى جوارنا ، أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها ! » فأقروه !

★ ★ ★

ولم يمض غير طويل حتى قضت مارية نحبها ، وحفظت عنها أرمانوسة هذا الشعر الذى أسمته : نشيد اليمامة :

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها ٠

تركها الأمير تصنع الحياة ، وذهب هو يصنع الموت !

هى كأسعد امرأة ، ترى وتلمس أحلامها ٠

ان سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض ٠



على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها ٠

لو سئلت عن هذا البيض لقالت : هذا كنزى ٠

هي كأهنا أمرأة ، ملكت ملكها من الحياة ولم تفتقر ·
هل أكلف الوجود شيئًا كثيرا اذا كلفته رجلًا واحدا أحبه ·

★ ★ ★

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها ·
الشمس والقمر والنجوم كلها أصغر فى عينها من هذا البيض ·
هى كأرق امرأة ، عرفت الرقة مرتين : فى الحب ، والولادة ·
هى أكلف الوجود شيئًا كثيرا اذا أردت أن أكون كهذه اليمامة ·

★ ★ ★

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها ·
تقول اليمامة : ان الوجود يحب أن يرى بلونين فى عين الأنثى:
مرة حبيبا كبيرا فى رجلها ، ومرة حبيبا صغيرا فى أولادها ·
كل شىء خاضع لقانونه ، والأنثى لا تريد أن تخضع الا لقانونها ···

★ ★ ★

أيتها اليمامة ؛ لم تعرفى الأمير وترك لك فسطاطه !
هكذا الحظ : عدل مضاعف فى ناحية ؛ وظلم مضاعف فى ناحية أخرى ·

احمدى الله أيتها اليمامة ، أن ليس عندكم لغات وأديان ·
عندكم فقط : الحب ، والطبيعــة ، والحياة !

★ ★ ★

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها ،
يمامة سعيدة ، ستكون فى التاريخ كهدهد سليمان ؛
نسب الهدهد الى سليمان ، وستنسب اليمامة الى عمر ·
واها لك يا عمرو ! ماضى لو عرفت اليمامة الأخرى ··· !

اجتـــلاء العيـد

جاء يوم العيد ؛ يوم الخـروج من الزمن الى زمن وحـده لا يستمر أكثر من يوم ·

زمن قصير ظريف ضاحك ، تفرضه الأديان على النـاس ، ليكون لهم بين الحين والحين يوم طبيعى فى هذه الحياة التى انتقلت عن طبيعتها ·

يوم السلام ، والبشر ، والضحك ، والوفاء ، والاخاء ، وقول الانسان للانسان : وأنتم بخير ·

يوم الثياب الجـديدة على الكل اشعـارا لهم بأن الوجـه الانسانى جديد فى هذا اليوم ·

يوم الزينة التى لا يراد منها الا اظهار أثرها على النفس ليكون الناس جميعا فى يوم حب ·

★ ★ ★

يوم العيد ؛ يوم تقديم الحلوى الى كل فم لتحلو الكلمـات فيه ···

يوم تعم فيـه النـاس ألفاظ الدعاء والتهنئة مرتفعـة بقوة الهية فوق منازعات الحياة ·



ذلك اليوم الذى ينظر فيه الانسان الى نفسه نظرة تلمح السعادة ، والى أهله نظرة تبصر الاعزاز ، والى داره نظرة تدرك الجمال ، والى الناس نظرة ترى الصداقة ٠

ومن كل هذه النظرات تستوى له النظرة الجميلة الى الحياة والعالم ، فتبتهج نفسه بالعالم والحياة ٠

وما أسماها نظرة تكشف للانسان أن الكل جماله فى الكل !

★★★

وخرجت أجتلى العيد فى مظهره الحقيقى على هؤلاء الأطفال السعداء ٠

على هذه الوجوه النضرة التى كبرت فيها ابتسامات الرضاع فصارت ضحكات ٠

هذه العيون الحالمة التى اذا بكت بكت بدموع لا ثقل لهــا ٠

وهذه الأفواه الصغيرة التى تنطق بأصوات لا تزال فيها نبرات الحنان من تقليد لغة الأم ٠

وهذه الأجسام الغضة القريبة العهد بالضمات واللثمات فــلا يزال حولها جو القلب ٠



على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياسا للزمن الا بالسرور ٠ وكل منهم ملك فى مملكة ، وظرفهم هو أمرهم الملوكى ٠

هؤلاء المجتمعين فى ثيابهم الجديدة المصبغة اجتماع قوس قزح فى ألوانه ·

ثياب عملت فيها المصانع والقلوب ، فلا يتم جمــالها الا بأن يراها الأب والأم على أطفالهما ·

ثياب جديدة يلبسونها فيكونون هم أنفسهم ثوبا جـديدا على الدنيــا ·

★★★

هؤلاء السحرة الصغار الذين يخرجون لأنفسهم معنى الكنــز الثمين من قرشين ··

ويسحرون العيد فاذا هو يوم صغير مثلهم جــاء يدعوهم الى اللعب ·

وينتبهون فى هذا اليوم مع الفجر ، فيبقى الفجر على قلوبهم الى غرب الشمس ·

ويلقون أنفسهم على العالم المنظور ، فيبنون كل شىء على أحد المعنيين الثابتين فى نفس الطفل : الحب الخالص ، واللهو الخالص·

ويبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة ، فيكون هذ ابحينه هو قربهم من حقيقتها السعيدة ·

★★★

هؤلاء الأطفال الذين هم السهولة قبل أن تتعقد ·

والذين يرون العالم فى أول ما ينمو الخيال ويتجاوز ويمتد·

ويفتشون الأقدار من ظاهرها ، ولا يستبطنون كلا يتألمون بلا طـــائل •

ويأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها ، ولا يأخذون من أنفسهم للأشياء كيلا يوجدوا لها الهم •

★★★

قانعون يكتفون بالثمرة ، ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التى تحملها •

ويعرفون كنه الحقيقة ، وهى العبرة بروح النعمة لا بمقدارها •

فيجدون من الفرح فى تغيير ثوب للجسم ، أكثر مما يجـــده الفاتح فى تغيير ثوب للمملكة •

★★★

هؤلاء الحكماء الذين يشبه كل منهم آدم أول مجيئه الى الدنيا •

حين لم تكن بين الأرض والسماء خليقة ثالثة معقدة من صنع الانسان المتحضر •

حكمتهم العليا : أن الفكر السامى هو جعل السرور فـكرا واظهـاره فى العمـل •

وشعرهم البديع : ان الجمال والحب ليســا فى شىء الا فى تجميل النفس واظهارها عا شقة للفرح •

★★★

هؤلاء الفلاسفة الذين تقوم فلسفتهم على قاعدة عملية ، وهى ان الأشياء الكثيرة لا تكثر فى النفس المطمئنة •

وبذلك تعيش النفس هادئة مستريحة كأن ليس فى الدنيـا الا اشياؤها الميسرة ٠

أما النفوس المضطربة بأطماعها وشهواتها فهى التى تبتـلى بهموم الكثرة الخيـالية ٠

ومثلها فى الهم مثل طفيلى مغفل يحزن لأنه لا يأكل فى بطنين ٠



واذا لم تكثر الأشياء الكثيرة فى النفس كثرت السعادة ولو من قلة ٠

فالطفل يقلب عينيه فى نساء كثيرات ، ولكن أمه هى أجملهن وان كانت شوهاء ،

فأمه وحدها هى أم قلبه ، ثم لا معنى للكثرة فى هذا القلب ٠

هذا هو السر ، خذوه أيها الحكماء عن الطفل الصغير ٠



وتأملت الأطفال وأثر العيـد على نفوسـهم التى وسعت من البشاشة فوق ملئها فاذا لسان حالهم يقول للكبار : أيتها البهائم اخلعى ارسنك ولو يوما !

أيها الناس ، انطلقوا فى الدنيا انطـلاق الأطفـال يوجدون حقيقتهم البريئة الضاحكة ٠

لا كما تصنعون اذ تنطلقون انطـلاق الوحش يوجد حقيقته المفترسة ٠



أحرارا حرية نشاط الكون ينبعث كالفوضى ، ولكن فى أدق النواميس ،

يثيرون السخط بالضجيج والحركة ، فيكونون مع الناس على خلاف ، لأنهم على وفاق مع الطبيعة ·

وتحتدم بينهم المعارك ، ولكن لا تتحطم فيها الا اللعب ··

أما الكبار فيصنعون المدفع الضخم من الحديد ، للجسم اللين من العظم ·

ايتها البهائم ، اخلعى أرسانك ولو يوما ··



لا يفرح أطفال الدار كفرحهم بطفل يولد ، فهم يستقبلون كأنه محتاج الى عقولهم الصغيرة ·

ويملؤهم الشعور بالفـــرح الحقيقى الكامن فى سر الخلق ، لقربهم من هذا السر ،

وكذلك تحمل السنة ثم تلد للأطفال يوم العيد ، فيستقبلونه كأنه محتاج الى لهوهم الطبيعى ·

ويملؤهم الشعور بالفرح الحقيقى الكامن فى سر العـــالم ، لقربهم من هذا السر ·

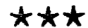


فيا أسفا علينا نحن الكبـــار ، ما أبعدنا عن سر الخلق بآثام العمـــر !

وما أبعدنا عن سر العـــالم ، بهذه الشــــهوات الكافرة التى لا تؤمن الا بالمادة ·

يا أسفا علينا نحن الكبار ! ما أبعدنا عن حقيقة الفرح ؟

تكاد آثامنا والله تجعل لنا فى كل فرحة خجلة ..



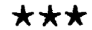
أيتها الرياض المنورة بأزهارها ..

أيتها الطيور المغردة بألحانها ..

أيتها الأشجار المصفقة بأغصانها ..

أيتها النجوم المتلألئة بالنور الدائم .

أنت شتى ، ولكنك جميعا فى هؤلاء الأطفال يوم العيد .



المعنى السياسى فى العيــد

ما اشد حاجتنا نحن المسلمين الى أن نفهم اعيادنا فهما جديدا نتلقاها به ونأخذها من ناحيته ، فتجىء اياما سعيدة عاملة ، تنبه فينا أوصافها القوية ، وتجدد نفوسنا بمعانيها ، لا كما تجىء الآن كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى ، اكبــر عملها تجـــديد الثياب ، وتحديد الفراغ ، وزيادة ابتسامة على النفاق ..

فالعيد انما هو المعنى الذى يكون فى اليوم لا اليوم نفسه ، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم ، وكان العيـــد فى الاسلام هو عيد الفكرة العابدة ، فأصبح عيد الفكرة العابثة ، وكانت عبادة الفكرة جمعها الأمة فى ارادة واحـــدة على حقيقة عمليــة ، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمة لى تقليد بغير حقيقة ، له مظهــر المنفعة وليس له معناها .

كان العيد اثبات الأمة وجودها الروحانى فى أجمل معانيه، فأصبح اثبات الأمة وجودها الحيوانى فى اكثر معانيه ، وكان يوم استرواح القوة من جدها ، فعاد يوم استراحة الضعف من ذله ، وكان يوم المبدأ ، فرجع يوم المادة !



ليس العيد الا اشعار هذه الأمة بأن فيها قوة تغيير الأيام ، لا اشعارها بأن الأيام تتغير ، وليس العيد للأمة الا يوم تعــرض فيه

جمال نظامها الاجتماعى ، فيكون يوم الشعور الواحد فى نفوس الجميع ، والكلمة الواحدة فى ألسنة الجميع ، يوم الشعور بالمقدرة على تغيير الأيام ، لا القدرة على تغيير الثياب ٠٠ كأنما العيد هو استراحة الأسلحة يوما فى شعبها الحربى ٠

وليس العيد الا تعليم الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتد حتى يرجع البلد العظيم وكأنه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الاخاء بمعناه العملى ، وتظهر فضيلة الاخلاص مستعلنة للجميع ، ويهدى الناس بعضهم الى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة ، وكأنما العيد هو اطلاق روح الأسرة الواحدة فى الأمة كلها ٠

وليس العيد الا اظهار الذاتية الجميلة للشعب مهزوزة من نشاط الحياة ، ولا ذاتية للامم الضعيفة ، ولا نشاط للأمم المستعبدة، فالعيد صوت القوة يهتف بالأمة : اخرجى يوم أفراحك ، اخرجى يوما كأيام النصر !

وليس العيد الا ابراز الكتلة الاجتماعية للامة متميزة بطابعها الشعبى ، مفصولة من الأجانب ، لابسة من عمل أيديها ، معلنة بعيدها استقلالين فى وجودها وصناعتها ، ظاهرة بقوتين فى ايمانها وطبيعتها ، مبتهجة بفرحين فى دورها وأسواقها ، فكأن العيد يوم يفرح فيه الشعب كله بخصائصه ٠

وليس العيد الا التقاء الكبار والصغار فى معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة فى طريقها ، وترك الصغار يلقون درسهم الطبيعى فى حماسة الفرح والبهجة ، ويعلمون كبارهم كيف توضع المعانى فى بعض الألفاظ فرغت عندهم من معانيها ، ويبصرونهم كيف ينبغى أن تعمل الصفات الانسانية فى الجموع عمل الحليف لحليفه ، لا عمل المنابذ لمنابذه ، فالعيد يوم تسلط العنصر الحى على نفسية الشعب٠

وليس العيد الا تعليم الأمة كيف توجه بقوتها حركة الزمن الى معنى واحد كلما شاءت ، فقد وضع لها الدين هـــذه القاعدة لتخرج عليها الأمثلة ، فنجعل للوطن عيدا ماليا اقتصاديا تبتسم فيه الدراهم بعضها الى بعض ، وتخترع للصناعة عيدها ، وتوجد للعـلم عيده ، وتبتدع للفن مجالى زينته ، وبالجملة تنشىء لنفسها أياما تعمل عمل القواد العسكريين فى قيادة الشعب ، يقوده كل يوم منها الى معنى من معانى النصر ٠



هذه المعانى السياسية القوية هى التى من أجلها فرض العيد ميراثا دهريا فى الاسلام ، ليستخرج أهل كل زمن من معانى زمنهم فيضيفوا الى المثال أمثلة مما يبدعه نشـــاط الأمة ويحققه خيـالها وتقتضيه مصالحها ٠

وما أحسب الجمعة قد فرضت على المسلمين عيـدا أسبوعيا يشترط فيه الخطيب والمنبر والمسجد الجامع ـ الا تهيئة لذلك المعنى وإعداد له ، ففى كل سبعة أيام مسلمة يوم يجىء فيشـعر النـاس معنى القـائد الحـربى للشعب كله ٠

ألا ليت المنابر الاسلامية لا يخطب عليها الا رجال فيهم أرواح المدافع ، لا رجال فى أيديهم سيوف من خشب (١) ٠



---

(١) انظر (قصة الأيدى المتوضئة) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

الربيـــع

خرجت أشهد الطبيعة كيف تصبح كالمعشوق الجميل لا يقـدم لعاشقه الا أسباب حبـه !

وكيف تكون كالحبيب يزيد فى الجســم حاسة لمس المعانى الجميـلة !

وكنت كالقلب المهجور الحزين وجد السماء والأرض ولم يجد فيهما سماءه وأرضه !

آلا كم من آلاف السنين وآلافها قد مضت منذ أخرج آدم من الجنـــة !

ومع ذلك فالتاريخ يعيد نفسه فى القلب ، لا يحـزن هذا القلب الا شعر كأنه طرد من الجنـة لساعته !

★★★

يقف الشاعر بازاء جمال الطبيعة فلا يملك الا أن يتدفق ويهتز ويطرب ، ، لأن السر الذى انبثق هنا فى الأرض يريد أن ينبثق هناك فى النفس ٠

والشاعر نبى هذه الديانة الرقيقة التى من شريعتها اصـــلاح الناس بالجمـال والخير ٠

وكل حسن يلتمس النظرة الحية التى تراه جميـــلا لتعطيه معنـــاه ،

وبهذا تقف الطبيعة محتفلة امام الشــاعر كوقــوف المــرأة الحسناء امام المصور !

★★★

لاحت لى الأزهار كأنها ألفاظ حب رقيقة مغشاة باستعارات ومجازات ، والنسيم حولها كثوب الحساء على الحسناء ، فيه تعبير من لابســـته ،

وكل زهرة كابتسامة ، تحتها اسرار وأسرار من معانى القلب المعقـــدة ،

أهى لغة الضوء الملون من الشمس ذات الألوان السبعة ،

أم لغة الضوء الملون من الخد والشفة والصـــدر والنحـــر والديباج والحلى ... ؟

وماذا يفهم العشـــاق من رموز الطبيعة فى هـــذه الأزاهر الجميلة ؟

أتشير لهم بالزهر الى أن عمر اللذة قصير كأنها تقول : على مقــدار هذا !

أتعلمهم أن الفرق بين جميل وجميل كالفرق بين اللون واللون وبين الرائحة والرائحة !

أتناجيهم بأن أيام الحب صور أيام لا حقائق أيام !
أم تقول الطبيعة : ان كل هذا لأنك أيتها الحشرات لا تنخدعين الا بكل هذا (١) .. !

★★★

(١) ثبت أن ألوان الازهار وعطرها وما فى ظاهرها وباطنها كل ذلك لاجتذاب الحشرات اليها لكى تنقل اللقاح من زهرة الى زهرة .

فى الربيع تظهر الوان الأرض على الأرض ، وتظهر الـوان النفس على النفس ،

ويصنع الماء صنعه فى الطبيعة فتخرج تهاويل النبات ، ويصنع الدم صنعه فيخرج تهاويل الأحلام ،

ويكون الهواء كأنه من شفاه متحابة يتنفس بعضها على بعض،

ويعـود كل شيء يلتمع لأن الحياة كلها ينبض فيها عرق النور،

ويرجع كل حى يغنى لأن الحب يريد أن يرفع صوته ٠

★★★

وفى الربيع لا يضيء النور فى الأعين وحدها ولكن فى القلوب أيضـا ،

ولا ينفذ الهواء الى الصدور فقط ولكن الى عواطفها كذلك،

ويكون للشمس حرارتان احداهما فى الدم ،

ويطغى فيضان الجمال كأنما يراد من الربيع تجربة منظـر من مناظر الجنة فى الأرض ،

والحيوان الأعجم نفسه تكون له لفتات عقلية فيهـا ادراك فلسفة السرور والمرح ٠

★★★

وكانت الشمس فى الشتاء كانها صورة معلقة فى السحاب ،

وكان النهار كانه يضيء بالقمر لا بالشمس ،

وكان الهواء مع المطر كأنه مطر غير سائل ،

وكانت الحياة تضع فى أشياء كثيرة معنى عبوس الجو ،

فلما جاء الربيع فرح جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أمهم من السـفر !

★★★

وينظر الشباب فتظهر له الأرض شابة ،

ويشعر أنه موجود فى معانى الذات أكثر مما هو موجود فى معانى العـالم ،

وتمتلىء له الدنيا بالأزهار ومعانى الأزهار ووحى الأزهار،

وتخرج له أشعة الشمس ربيعا ، وأشعة قلبه ربيعا آخر ،

ولا تنسى الحياة عجائزها ، فربيعهم ضوء الشمس !

ما اعجب سر الحياة ! كل شجرة فى الربيع جمـــال هندسى مســـتقل ،

ومهما قطعت منها وغيرت من شكلها أبرزتها الحياة فى جمال هندسى جديد كأنك أصلحتها ،

ولو لم يبق منها لا جذر حى أسرعت الحياة فجعلت له شـكلا من غصون وأوراق !

الحياة الحياة ، اذا انت لم تفسدها جاءتك دائما هداياها ٠

وأذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك ، ولكن بمقدار القوة التى أنت بها مؤمن ٠



« فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها »،

وانظر كيف يخلق فى الطبيعة هذه المعانى التى تبهج كل حى بالطريقة التى يفهمها كل حى ،

وانظر كيف يجعل فى الأرض معنى السرور وفى الجو معنى السـعادة ،

وانظر الى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التى تملؤها وتطمئن ،

انظر انظر ! أليس كل ذلك ردا على اليأس بكلمة : لا .. ؟



عــرش الــورد (*)

كانت جلوة العروس كأنها تصنيف من حلم توافت عليه أخيلة السعادة فأبدعت ابداعها فيه ، حتى اذا اتسق وتم نقلته السعادة الى الحياة فى يوم من أيامها الفرِدة التى لا يتفق منها فى العمــر الطويل الا العدد القليل ، لتحقق للحى وجــود حياته بســـحرها وجمالها ، وتعطيه فيما ينسى مالا ينسى .

خرج الحلم السعيد من تحت النــوم الى اليقظة ، وبرز من الخيال الى العين ، وتمثل قصيدة بارعة جعلت كل ما فى المكان يحيا حياة الشعر ، فالأنوار نساء والنســــاء أنوار ، والأزهار أنوار ونساء ، والموسيقى بين ذلك تتمم من كل شيء معناه ، والمكان وما فيه وزن فى وزن ، ونغم فى نغم ، وسحر فى سحر .



ورأيت كأنما سحرت قطعة من سماء الليل ، فيها دارة القمر ، وفيها نثرة من النجــوم الزهر فنزلت فحلت فى الدار يتوضحن ويأتلقن من الجمال والشعاع وفى حسن كل منهن مادة فجر طالع ، فكن نساء الجلوة وعروسها .

(*) يصف المؤلف فى هذه القطعة زفاف ابنته وهيبة الى ابن عمها وهى أول من تزوج من ولده وانظر «عمله فى الرسالة» من كتابنا « حياة الرافعى » .

ورأيت كأنما سحر الربيع فاجتمع فى عرش أخضر قد رصع بالورد الأحمر وأقيم فى صدر البهو ليكون منصة للعروس ، وقد نسقت الأزهار فى سمائه وحواشيه على نظمين : منهما مفصل ترى فيه بين الزهرتين من اللون الواحد زهرة تخالف لونهما ، ومنهما مكدس بعضه فوق بعض ، من لون متشابه أو متقارب ، فبدا كأنه عش طائر ملكى من طيور الجنة أبدع فى نسجه وترصيعه بأشجار سقى الكوثر أغصانها ·

وقامت فى أرض العرش تحت أقدام العروسين ، ربوتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانه ، يحملهما خمـــل من ناعم النسيج الأخضر على غصونه اللدن تتهافت من رقتها ونعومتها ·

وعقد فوق هذا العرش تاج كبير من الورد النادر ، كأنما نزع عن مفرق ملك الزمن الربيعى ، وتنظر اليه يسطع فى النور بجماله الساحر سطوعا يخيل اليك ان أشعة من الشمس التى ربت هذا الورد لا تزال عالقة به ، وتراه يزدهى جلالا كأنما ادرك أنه فى موضعه رمز ملكة انسانية جديدة تألفت من عروسين كريمين ، ولاح لى مرارا أن هذا التاج يضحك ويستحى ويتدلل ، كأنما عرف أنه وحده بين هذه الوجود الحسان يمثل وجه الورد ·

ونص على العـــرش كرسيان يتوهج لون الذهب فوقهما ، ويكسوهما طراز أخضر تلمح نضارته بشرا ، حتى لتحسب أنه هو أيضا قد نالته من هذه القلوب الفرحة لمسة من فرحها الحى ·

وتدلت على العرش قلائد المصـــابيح ، كأنها لؤلؤ تخلق فى السماء لا فى البحر فجاء من النور لا من الدر ، وجـــاء نورا من خاصته أنه متى استضاء فى جو العروس أضاء الجو والقـــلوب جميعـــا ·

وأتى العروسان الى عـــرس الورد فجلسا جلســـة كوكبين حدودهما النور والصفاء ، واقبلت العذارى يتخطرن فى الحـــرير الأبيض كأنه من نور الصبح ، ثم وقفن حافات حول العرش ، حاملات فى أيديهن طاقات من الزنبق ، تراها عطرة بيضاء ناضرة حيية كأنها عذارى مع عذارى ، وكأنما يحملن فى أيديهن من هذا الزنبق الغض معانى قلوبهن الطاهرة • هذه القلوب التى كانت مع المصـــابيح مصابيح اخرى فيهـــا نورها الضاحك •

واقتعدت درج العرش تحت ربوتى الزهر ودون أقدام العروسين ـ طفلة صغيرة كالزهرة البيضاء تحمل طفولتها ، فكانت من العرش كله كالماسة المدلاة من واسطة العقد ، وجعلت بوجهها للزهر كـله تماما وجمالا ، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبان منزو لا يرين أن يرى •

وكان ينبعث من عينها فيما حولها تيار من أحلام الطفــــولة جعل المكان بمن فيه كأن له روح طفل يغتته مسرة جديدة •

وكانت جالسة جلســـة شعر تمثل الحيـــاة الهنيئة المبتكرة لساعتها ليس لها ماض فى دنيانا •

ولو أن مبدعا افتن فى صنع تمثال للنية الطاهرة وجىء به فى مكانها وأخذت هى فى مكانه لتشابها وتشاكل الأمر •

وكان وجودها على العرش دعوة للملائكة أن تحضر الزفاف وتباركه •

وكانت بصغرها الظريف الجميل تعطى لكل شيء تماما ، فيرى اكبر مما هو وأكثر مما هو فى حقيقته ، كانت النقطة التى استعلنت فى مركز الدائرة : ظهورها على صغرها هو ظهـور الأحكام والوزن والانسجام فى المحيط كله ٠



لا يكون السرور دائما الا جديدا على النفس ، ولا سرور للنفس الا من جديد على حالة من أحوالها ، فلو لم يكن فى كل دينـار قرة جديدة غير التى فى مثله لما سر بالمال أحد ولا كان له الخطر الذى هو له ، ولو لم يكن لكل طعام جوع يورده جديدا على المعدة لما هنأ ولا مرأ ، ولو لم يكن الليل بعد نهار والنهار بعد ليل والفصول كلها نقيضا على نقيضه وشيئا مختلفا على شيء مختلف ـ لما كان فى السماء والأرض جمال ولا منظر جمـال ولا احسـاس بهما ، والطبيعة التى لا تفلح فى جعلك معها طفلا تكون جديدا على نفسك ـ لن تفلح فى جعلك مسرورا بها لتكون هى جديدة عليك ٠

وعرش الورد كان جديدا عند نفسى على نفسى ، وفى عاطفتى على عاطفتى ، ومن أيامى على أيامى ، نزل صباح يومه فى قلبى بروح الشمس ، وجاء مساء ليلته لقلبى بروح القمر ، وكنت عنـده كالسماء أتلألأ بأفكارى كما تتلألأ بنجـومها ، وقـد جعلتنى أمتـد بسرورى فى هذه الطبيعة كلها ، اذ قدرت على أن أعيش يوما فى نفسى ، ورأيت وأنا فى نفسى أن الفرح هو سر الطبيعة كلها ، وأن كل ما خلق الله جمال فى جمال ، فانه تعالى نور السموات والأرض ، وما يجيء الظلام مع نوره ولا يجيء الشر مع أفراح الطبيعة الا من محاولة الفكر الانسانى خلق أوهامه فى الحياة واخراجه النفس من طبائعها ، حتى أصبح الانسـان كأنما يعيش بنفس يحاول أن يصنعها صناعة ، فلا يصنع الا أن يزيغ بالنفس التى فطرها الله ٠

يا عجبا ! ينفر الانسان من كلمات الاستعباد والضعة والذلة والبؤس والهم وأمثالها ، وينكرها ويردها ، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه فى الحياة الا عن معانيها !



ان يوما كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ســاعة، بل من أربعة وعشرين فرحا ، لأنه من الأيام التى تجعل الوقت يتقدم فى القلب لا فى الزمن ، ويكون بالعواطف لا بالساعات ، ويتــواتر على النفس بجديدها لا بقديمها ٠

كان الشباب فى موكب نصره ، وكانت الحيــاة فى ساعة صلح مع القــلوب ، حتى اللغة نفسها لم تكن تلقى كلمــــاتها الا ممتلئة بالطرب والضحك والسعادة ، آتية من هذه المعانى دون غيرها ، مصورة على الوجوه احساسها ونوازعها ، وكل ذلك سحر عرش الورد ، تلك الحديقة الساحرة المسحورة التى كانت النسمات تأتى من الجو ترفرف حولها متحيرة كأنما تتساءل : أهذه حديقة خلقت بطيور انسانية ، أم هى شجرة ورد هبطت من الجنة بمن يتفيأن ظلها ويتنسمن شذاها من الحور ، أم ذاك منبع وردى عطـــرى نورانى لحياة هذه الملكة الجالسة على العرش ؟

يا نسمات الليل الصافية صفاء الخير ، أسأل الله أن تنبع هذه الحياة المقبلة فى جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد المبهج ، والعطر المنعش ، والضوء المحيى ؛ فان هذه العروس المعتلية عرش الورد :

هى ابنتى ٠٠٠

أيهـا البحر (*) (١)

اذا احتدم الصيف ، جعلت أنت أيها البحر للزمن فصلا جديدا يسمى « الربيع المائى » .

وتنتقل الى أيامك أرواح الحدائق ، فتنبت فى الزمن بعض الساعات الشهية كأنها الثمر الحلو الناضج على شجره .

ويوحى لونك الأزرق الى النفوس ما كان يوحيه لون الربيع الأخضر ، الا انه أرق والطف .

ويرى الشعراء فى ساحلك مثل ما يرون فى أرض الربيع : أنوثة ظاهرة غير انها تلد المعانى لا النبات .

ويحس العشاق عندك ما يحسونه فى الربيع : أن الهواء يتأوه ... !

★ ★ ★

فى الربيع يتحرك فى الدم البشرى سر هذه الأرض ، وعند « الربيع المائى » يتحرك فى الدم سر هذه السحب .

(*) كتبها فى مصيفه بالاسكندرية .

(١) كتبنا فى (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف للبحر كثيرة .

نوعان من الخمر فى هواء الربيع وهواء البحر يكون منهما سكر واحد من الطرب .

وبالربيعين الأخضر والأزرق ينفتح بابان للعــالم الســحرى العجيب ، عالم الجمال الأرضى الذى تدخله الروح الانسانية كما يدخل القلب المحب فى شعاع ابتسامة ومعناها .



فى « الربيع المائى » يجلس المرء ، وكأنه جالس فى سحابة لا فى الأرض .

ويشعر كأنه لابس ثيابا من الظل لا من القماش ،

ويجد الهواء قد تنزه عن أن يكون هواء التراب ،

وتخف على نفسه الأشياء ، كأن بعض المعــانى الأرضــية انتزعت من المادة ؛ وهنا يدرك الحقيقة : أن السرور ان هو الا تنبه معانى الطبيعــة فى القلب .



وللشمس هنا معنى جديد ليس لها هناك فى « دنيا الرزق » ؛ تشرق الشمس هنا على الجسم ، أما هناك فكأنما تطلع وتغرب على الأعمــال التى يعمل الجسم فيها .

تطلع هنــاك على ديوان الموظف لا الموظف ، وعلى حانوت

التـاجر لا التـاجر ، وعلى مصنع العامل ، ومدرسة التلميذ ، ودار المرأة ؛

تطلع الشمس هناك بالنور ، ولكن الناس ـ وأسفاه ـ يكونون فى ساعاتهم المظلمة ...

الشمس هنا جديدة ، تثبت أن الجديد فى الطبيعـة هو الجديد فى كيفية شعور النفس به .



والقمر زاه رفاف من الحسن ، كأنه اغتسل وخرج من البحر :

أو كأنه ليس قمرا ، بل هو فجر طلع فى أوائل الليـل فحصرته السماء فى مكانه ليستمر الليل .

فجر لا يوقظ العيون من أحلامها ، ولكنـه يوقـظ الأرواح لأحـــلامها ،

ويلقى من سحره على النجوم ، فلا تظهر حوله الا مستبهمة كأنها أحـلام معلقة .

للقمر هنا طريقة فى ابهاج النفس الشاعرة كطريقـة الوجه المعشوق حين تقبله أول مرة .

★ ★ ★

و « للربيع المائى » طيوره المفردة وفراشه المتنقل :

أما الطيور فنساء يتضاحكن ، وأما الفراش فأطفال يتواثبون، نساء اذا انغمسن فى البحر خيل الى ان الأمواج تتشاحن وتتخاصم على بعضهن ...

رأيت منهن زهراء فاتنة قد جلست على الرمل جلسة حواء قبل اختراع الثياب ، فقال البحر : يا الهى ! قد انتقل معنى الغرق الى الشاطىء ...

ان الغريق من غرق فى موجة الرمل هذه ... !



والأطفال يلعبون ويصرخون كأنما اتسعت لهم الحياة والدنيا .

وخيل الى أنهم أقلقوا البحر كما يقلقون الدار ، فصاح بهم : ويحكم يا أسماك التراب ... ورأيت طفلا منهم قد جاء فوكز البحر برجله ، فضحك البحر وقال : انظروا يا بنى آدم !

أعلى الله أن يعبأ بالمغرور منكم اذا كفر به ؟ أعلى أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقول انه ركلنى برجله !



أيها البحر ، قد ملأتك قوة الله لتثبت فراغ الأرض لأهل الأرض .

ليس فيك ممالك ولا حدود ، وليس عليك سلطان لهذا الانسان المغرور ؛

وتجيش بالناس وبالسفن العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشا ترمى به ؛

والاختراع الانسانى مهما عظم لا يغنى الانسان فيك عن ايمانه ؛

وانت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظمة والهول ، ردا على عظمة الانسان وهوله فى الربع الباقى ؛ ما أعظم الانسان وأصغره !



ينزل الناس فى مائك فيتساوون حتى لا يختلف ظاهر عن ظاهر ،

ويركبون ظهرك فى السفن فيحن بعضهم الى بعض حتى لا يختلف باطن عن باطن ؛

تشعرهم جميعا أنهم خرجوا من الكرة الأرضية ومن أحكامها الباطلة ،

وتفقرهم الى الحب والصداقة فقرا يريهم النجوم نفسها كأنها اصدقاء اذ عرفوها فى الأرض :

يا سحر الخوف ، انت أنت فى اللجة كما انت أنت فى جهنم !



واذا ركبك الملحد أيها البحر فرجفت من تحته وهدرت عليه وثرت به وأريته العين كأنه بين سماءين ستنطبق احداهما على الأخرى فتقفلان عليه ـ تركته يتطاطأ ويواضع ، كأنك تهزه وتهز أفكاره معا ، وتدحرجه وتدحرجها ،

وأطرت كل ما فى عقله فيلجأ الى الله بعقل طفل ٠

وكشفت له عن الحقيقة : أن نسيان الله ليس عمل العقل ، ولكنه عمل الغفلة والأمن وطول السلامة ٠



ألا ما أشبه الانسان فى الحياة بالسفينة فى أمواج هذا البحر،

ان ارتفعت السفينة أو انخفضت أو مادت ، فليس ذلك منها وحدها ، بل مما حولها ؛

ولن تستطيع هذه السفينة أن تملك من قانون ما حولها شيئا ، ولكن قانونها هو الثبات ، والتوازن ، والاهتداء الى قصدها ونجاتها فى قانونها ٠

فلا يعتبن الانسان على الدنيا وأحكامها ، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسه ٠

فى الربيع الأزرق(*) (١)

خواطر مرسلة

ما أجمل الأرض على حاشية الأزرقين : البحر والسماء ، يكاد الجالس هنا يظن نفسه مرسوما فى صورة الهية ·



نظرت الى هذا البحر العظيم بعينى طفل يتخيل أن البحر قد ملىء بالأمس ، وأن السماء كانت اناء له فانكفأ الاناء فانـدفق البحر ، وتسرحت مع هذا الخيال الطفلى الصغير ، فكأنما نالنى رشاش من الاناء ···

اننا لن ندرك روعة الجمال فى الطبيعة الا اذا كانت النفس قريبة من طفولتها ومرح الطفولة ولعبها وهذيانها ·

★ ★ ★

تبدو لك السماء على البحر أعظم مما هى ، كما لو كنت تنظر اليها من سماء لا من الأرض ·



(*) كتبها فى مصيفه بالاسكندرية ·

(١) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر ، وقد شاع استعمالها بعد نشر هذه المقالة

اذا أنا سافرت فجئت الى البحر أو نزلت بالصحراء ، أو حللت بالجبل ، شعرت أول وهلة من دهشة السرور بما كنت أشعر بمثله لو أن الجبل أو الصحراء او البحر قد سافرت هى وجاءت الى •

★★★

فى جمال النفس يكون كل شىء جميلا ، اذ تلقى النفس عليه من الوانها ، فتنقلب الدار الصغيرة قصرا ؛ لأنها فى سعة النفس لا فى مساحتها هى ، وتعرف لنور النهار عذوبة كعذوبة الماء على الظما ، ويظهر الليل كأنه معرض جواهر أقيم للحور العين فى السموات ، ويبدو الفجر بألوانه وأنواره ونسماته كأنه جنة سابحة فى الهواء •

فى جمال النفس ترى الجمال ضرورة من ضرورات الخليقة ، وى ! كأن الله أمر العالم الا يعبس للقلب المبتسم •

★★★

أيام المصيف هى الأيام التى ينطلق فيها الانسان الطبيعى المحبوس فى الانسان ، فيرتد الى دهره الأول ، دهر الغابات والبحار والجبال •

ان لم تكن أيام المصيف بمثل هذا المعنى ، لم يكن فيها معنى •

★★★

ليست اللذة فى الراحة ولا الفراغ ، ولكنها فى التعب والكدح والمشقة حين تتحول أيامها الى راحة وفراغ •

لا تتم فائدة الانتقال من بلد الى بلد الا اذا انتقلت النفس من شعور الى شعور ، فاذا سافر معك فأنت مقيم لم تبرح ٠

***

الحياة فى الصيف تثبت للانسان أنها انما تكون حيث لا يحفل بهـا كثيرا ٠

يشعر المرء فى المدن انه بين آثار الانسان وأعماله ، فهو هنالك فى روح العناء والكدح والنزاع ؛ أما فى الطبيعة فيحس أنه بين الجمال والعجائب الالهيـة ، فهو هنـا فى روح اللـذة والسرور والجلال ٠

***

اذا كنت فى أيام الطبيعة فاجعل فكرك خاليا وفرغه للنبت والشجر ، والحجر والمدر ، والطير والحيوان ، والزهر والعشب ، والماء والسماء ، ونور النهار وظلام الليل ، حينئذ يفتح لك العـالم بابه ويقـول : ادخل ٠٠٠

***

لطف الجمال صورة أخرى من عظمة الجمال ؛ عرفت ذلك حينما أبصرت قطرة من الماء تلمع فى غصن ، فخيل الى أن لها عظمة البحر لو صغر فعلق على ورقة ٠



فى لحظة من لحظـات الجسد الروحانية حين يفـور شـعر الجمال فى الدم ، أطلت النظر الى وردة فى غصنها ، زاهية عطرة ، متأنقة ، متأنثة ؛ فكدت أقول لها : أنت أيتها المرأة ، أنت يا فلانة …

★★★

أليس عجيبا أن كل انسان يرى فى الأرض بعض الأمكنة كأنها أمكنة للروح خاصة ؟ فهل يدل هذا على شىء الا أن خيال الجنة منذ آدم وحواء ، لا يزال يعمل فى النفس الانسانية ؟

★★★

الحياة فى المدينة كشرب الماء فى كوب من الخزف ، والحياة فى الطبيعة كشرب الماء فى كوب من البلور الساطع ؛ ذاك يحتوى الماء ، وهذا يحتويه ويبدى جماله للعين .

★★★

واأسفاه ! هذه هى الحقيقة : ان دقة الفهم للحياة تفسدها على صاحبها ، كدقة الفهم للحب ؛ وان العقل الصـغير فى فهمـه للحب والحياة ، هو العقل الكامل فى التذاذه بهما . واأسفاه ! هذه هى الحقيقة !

★★★

فى هذه الأيام الطبيعية التى يجعلهـا الصـيف أيام سرور ونسيان ، يشعر كل انسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمة هزل ودعابة .



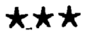
من لم يرزق الفكر العاشق لم ير أشياء الطبيعة الا فى أسمائها وشياتها ، دون حقائقها ومعانيها ؛ كالرجل اذا لم يعشق رأى النساء كلهن سواء ، فاذا عشق رأى فيهن نساء غير من عرف ، وأصبحن عنده أدلة على صفات الجمال الذى فى قلبه ٠



تقوم دنيا الرزق بما تحتاجه الحياة ، أما دنيا المصيف فقائمة بما تلذه الحياة ؛ وهذا هو الذى يغير الطبيعة ويجعل الجو نفسه هناك جو مائدة ظرفاء وظريفات ٠٠٠



تعمل أيام المصيف بعد انقضائها عملا كبيرا ، هو ادخـال بعض الشعر فى حقائق الحياة ٠



هذه السماء فوقنا فى كل مكان ، غير أن العجيب أن أكثر الناس يرحلون الى المصايف ليروا أشياء منها السماء ٠٠٠



اذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور تزيد ، وتتسع وحقائق الهموم تصغر وتضيق ، وأدركت أن دنيـاك ان ضاقت فأنت الضيق لا هى ٠



في الساعة التاسعة اذهب الى عملى ، وفى العاشرة أعمل كيت ، وفى الحادية عشرة أعمل كيت وكيت ؛ وهنا فى المصيف تفقد التاسعة وأخواتها معانيها الزمنية التى كانت تضعها الأيام فيها ، وتستبدل منها المعانى التى تضعها فيها النفس الحرة ·

هذه هى الطريقة التى تصنع بها السعادة أحيانا ، وهى طريقة لا يقدر عليها أحد فى الدنيا كصغار الأطفال ·

★★★

اذا تلاقى الناس فى مكان على حالة متشـــابهة من السرور وتوهمه والفكرة فيه ، وكان هذا المكان معدا بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهها ـ فتلك هى الرواية وممثلوها ومسرحها (١) ، أما الموضوع فالسخرية من انسان المدنية ومدنية الانسان ·

ما أصدق ما قالوه : ان المرئى فى الرائى · مرضت مدة فى المصيف ، فانقلبت الطبيعة العروس التى كانت تتزين كل يوم ، الى طبيعة عجوز تذهب كل يوم الى الطبيب ···

---

(١) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب ارسلان أن المسرح لدار التمثيل غير صحيح وان صوابها المزرح ، ولكن الصاحب بن عباد استعملها فى قريب من معنى دار التمثيل وأصلها من مرادفات : ندى القوم ومجتمعهم ·

حـــديث قطين (*)

جاء فى امتحان شهادة اتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام (١٩٣٤) فى موضوع الانشـــاء ما ياتى :

تقابل قطان : أحدهما سمين تبدو عليه آثار النعمة ، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله ، فماذا يقولان اذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته ؟ » ٠

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القطين ، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلام بينهما ، والى أى غاية ينصرف القول فى محاورتهما ؛ وضاقوا جميعا وهم أطفال ــ أن تكون فى رءوسهم عقول السنانير ، وأعياهم أن تنزل غرائزهم الطيبة فى هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصة ، فيكتنهوا تدبير هذه القطاط لحياتها ، وينفذوا الى طبائعها ، ويندمجوا فى جلودها ، ويأكلوا بأنيابهم ، ويمزقوا بمخالبها ٠

قال بعضهم : وسخطنا على أساتذتنا أشد السخط ، وعبناهم بأقبح العيب ؛ كيف لم يعلمونا من قبل ، أن نكون حميرا وخيلا وبغالا وثيرانا وقردة وخنازير وفئرانا وقططة ، وما هب ودب ، وما طار ودرج ، وما مشى وانساح ؛ وكيف ــ ويحهم ــ لم يلقنونا

(*) انظر (عمله فى الرسالة) من كتابنا (حياة الرافعى) ٠

مع العربية والانجليزية لغـات النهيق ، والصهيل ، وشـحيج ، والخوار ، وضحك القرد ، وقباع الخنذير ، وكيف نصىء ونموء ، ونلغط لغط الطير ، ونفح فحيح الأفعى ، ونكش كشيش الدبابات(١) ، الى ما يتم به هذا العلم اللغوى الجـليل ، الذى تقوم به بلاغة البهائم والطير والحشرات والهمج وأشباهها ٠٠٠ ؟

وقال تلميذ خبيث لأستاذه : أما أنا فأوجزت وأعجزت ٠ قال أستاذه : أجدت وأحسنت ، والله أنت ، وتالله لقد أصبت ! فماذا كتبت ؟ قال كتبت هكذا :

يقول السمين : ناو ، ناو ، ناو ٠٠٠ فيقول النحيف : نو ، ناو ، نو ٠٠٠ فيرد عليه السمين : نو ، ناو ، ناو ٠٠ فيغضب النحيف ، ويكشر عن أسنانه ، ويحرك ذيله ويصيح : نو ، نو ، نو ٠٠٠ فيلطمه السمين فيخدشـه ويصرخ : نـاو ٠٠٠ فيثبت عليـه النحيف ويصطرعات ، وتختلط « النونوة » لا يمتاز صوت من صوت، ولا يبين معنى من معنى ، ولا يمكن الفهم عنهما فى هـذه الحـالة الا بتعب شديد ، بعد مراجعة قاموس القطاط ٠٠٠ !

قال الأستاذ : يا بنى ، بارك الله عليك ! لقد أبدعت ابداعا ، فصنعت ما يصنع اكبر النوابغ : يظهر فنه باظهار الطبيعة واخفاء نفسه ، وما ينطق القط بلغتنا الا معجزة لنبى ، ولا نبى بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فلا سبيل الا ما حكيت ووصفت ، وهو مذهب الواقع ، والواقع هو الجديد فى الأدب ؛ ولقد أرادوك تلميذا هرا ، فكنت فى اجابتك هرا استاذا ؛ ووافقت السنانير وخالفت الناس ، وحققت للممتحنين أرقى نظريات الفن العـالى ، فان هذا الفن انما هو فى طريقة الموضوع الفنية ، لا فى تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك ، ولو حفظوا حرمة الأدب ، ورعوا عهد

(١) هذه أصوات هذه الأجناس فى اللغة ٠

الفن · لأدركوا أن فى أسطرك القليلة كلاما طويلا بارعا فى النادرة والتهكم وغرابة العبقرية وجمالها وصدقها وحسن تناولها واحكام تأديتها لما نؤدى (١) ؛ ولكن ما الفرق يا بنى بين « ناو » بالمد ، و « نو » بغير مد ··· ؟ قال التلميذ : هذا عند السنانير كالاشارات التلغرافية : شرطة ونقطة وهكذا ·

قال : يا بنى ، ولكن وزارة المعـارف لا تقر هذا ولا تعرفه ، وانمـا يكـون المصحح أسـتاذا لاهـرا ··· والامتحـان كتـابى لا شفوى ·

قال الخبيث : وأنا لم أكن هرا ، بل كنت انسـانا ، ولكن الموضوع حديث قطين ، والحكم فى مثل هذا لأهله القائمين به ، لا المتكفلين له المتطفلين عليه ؛ فان هم خالفونى قلت لهم : اسألوا القطاط ، أولا فليأتوا بالقطين : السمين والنحيف ، فليجمعوا بينهما ، وليحرشوهما ، ثم ليحضروا الرقباء هذا الامتحـان ، وليكتبوا عنهما ما يسمعونه ، وليصفوا منهما ما يرونه ؛ فوالذى خلق السنانير والتلاميذ والمتحنين والمصححين جميعـا ـ ما يزيد الهران على « نو » ، و « ناو » ولا يكون القول بينهما الا من هــذا ، ولا يقع الا ما وصفت ، وما بد من المهارشة والمواثبة بمـ فى طبيعة القوى والضعيف ، ثم فرار الضعيف مهزوما ، وينتهى الامتحان ·

★★★

ان مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصـغير خلق هرتين لا الحديث عنهما ؛ فان اجادة الانشاء فى مثل هذا الباب الومية عقلية تخلق خلقها السوى الجميل نابضا حيا ، كأنما وضعت فى الكلام قلب هر ، أو جاءت بالهر له قلب من الكلام · وأين هذا

(١) هذا كلام تهكم كما هو ظاهر ·

من الأطفال في الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولهما ؟ وكيف لهم في هذا السن أن يمتزجوا بدقائق الوجــود ، ويداخلوا أسرار الخليقة ، ويصبحوا مع كل شيء رهنا بعلله ، وعند كل حقيقــة موقوفين على أسبابها ؟ وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية : « كن زهرة وصف » • « واجعل نفسك حبة قمح وقل » • وانمـا هذا ونحوه غاية من أبعد غايات النبوة أو الحكمة ؛ اذ النبي تعبير الهي تتخذه الحقيقة الكاملة لتنطق به كلمتها التي تسمى الشريعة ، والحكيم وجه آخر من التعبير ، تتخذه تلك الحقيقة لتلقى منه الكلمة التي تسمى الفن •

وقد كان في القديم امتحان مثل هذا ، لم ينجح فيه الا واحد فقط من بين آلاف كثيرة ؛ وكان المتحن هو الله جل جلاله ، والموضوع حديث النملة مع النمل ، والناجح سليمان عليه السلام !

« قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنـكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها » !

ان الكون كله مستقر بمعاينة الرمزية في النفس الكاملة ؛ اذ كانت الروح في ذاتها نورا ، وكان سر كل شيء هو من النور ، والشعاع يجري في الشعاع كما يجري الماء في الماء ، وفي امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوب روحاني هو بذاتــه تعـبير في البصيرة وادراك في الذهن ، وهو أساس الفن على اختلاف أنواعه : في الكلمة والصورة ، والمثـال والنغمة ؛ أي الكتابة والشـعر والتصوير والحفر والموسيقى •

ومن ذلك لا يكون البيــان العــالي أتم اشراقا الا بتمام النفس البليغة في فضيلتها أو رذيلتها على السواء ؛ فان من عجائب السخرية بهذا الانسان أن يكون تمام الرذيلة في أثره على العمل

الفني ، هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة فى أثره على هذا الحمل ، والنقطة التى ينتهى فيها العلو من محيط الدائرة هى بعينهــا التى يبدأ منها الانحدار الى الســفل ؛ ومن ثم كانت الفنون لا تعتبر بالأخلاق ؛ حتى قال علماؤنا : ان الدين عن الشعر بمعزل ؛ فالأصل هناك سمو التعبير وجماله ، وبلاغة الأداء وروعتها ، ولا يكــون السؤال الفني : ما هى قيمة هذه النفس ؟ ولكن : ما طريقتهــا الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ أليس لجهنم حق فى كبار أهل الفن كما للجنة حق فى نوابغه ؟ واذا قالت الجنة : هذه فضائلى البليغة ٠ أفلا تقول الجحيم : وهــذه بلاغة رذائلى ؟ وكيف لعمرى يستطيــع ابليس أن يؤدى عمله الفني ٠٠ ويصور بلاغته العاليــة الا فى ساقطين من أهل الفكر الجميل ، وســاقطات من أهــل الجســم الجميل ٠٠٠ ؟

★★★

لقد بعدنا عن القطين ، وأنا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما :

كان القط الهزيل مرابطا فى زقاق ، وقد طارد فأرة فانجحرت فى شق ، فوقف المسكين يتربص بها أن تخرج ، ويؤامر نفســه كيف يعالجها فيبتزها ؛ وما عقل الحيوان الا من حرفة عيشه لا من غيرها ؛ وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرج عن نفسه بأن يكون ساعة أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض ، لا كأطفال الناس مع أهليهم وذوى عنايتهم ، وأبصر الهزيل من بعيد فأقبل يمشى نحوه ، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلع تخلع الأسد فى مشيته ، وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها ، وبسطته النعمة من أطرافه ، وانقلبت فى لحمه غلظا ، وفى عصبه شدة ، وفى شعره بريقا ، وهو يموج فى بدنه من قوة وعافية ،

ويكاد اهابة ينشق سمنا وكدنة ، فانكسرت نفس الهزيل ، ودخلته الحسرة ، وتضعضع لمرأى هذه النعمة مرحة مختالة ؛ وأقبل السمين حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له ، اذ رآه نحيفا مقتضبا ، طاوى البطن ، بارز الأضلاع ، كأنما همت عظـامه أن تترك مسكنهـا من جلده لتجد لها ماوى آخر ٠

فقـال له : ماذا بك ؟ ومالى اراك متيبسا كالميت فى قبره غير أنك لم تمت ؟ ومالك اعطيت الحياة غير أنك لم تحى ؟ أو ليس الهز منا صورة مختزلة من الأسد ، فمالك – ويحك – رجعت صـورة مختزلة من الهر ؟ افلا يسقونك اللبن ، ويطعمونك الشحمة واللحمة ، ويأتونك بالسمك ، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر ، ويفتون لك الخبز فى المرق ، ويؤثرك الطفل ببعض طعامه ، وتدللك الفتـاة على صـدرها ، وتمسحك المرأة بيديها ، ويتناولك الرجـل كمـا يتناول ابنه ٠٠٠ ؟ وما لجلدك هذا مغبرا كأنك لا تلطعه بلعابك ، ولا تتعهده بتنظيف ، وكأنك لم تر قط فتى أو فتاة يجرى الدهان بريقا فى شعره أو شعرها ، فتحاول أن تصنع بلعابك صنيعهما ؛ واراك متزايل الأعضاء متفككا حتى ضعفت وجهدت ، كأنه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسلك وراحتك ، ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك ، وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشية ولا وسادة ولا بساطا ولا طرازا ، وما اشبهك باسد اهلكه الا يجد الا العشب الأخضر والهشيم ويابس ، فما له لحم يجىء من لحم ، ولا دم يكون من دم ، وانحط فيه جسم الأسد ، وسكنت فيه روح الحمار !

قال الهزيل : وان لك لحمة وشحمة ، ولبنا وسمكا ، وجبنـا وفتاتا ؟ وانك لتقضى يومك تلطع جلدك ماسحا وغاسلا ، او تتطرح على الوسائد والطنافس نائما ومتمددا ؟ اما والله لقد جاءتك النعمة

والبلادة معا ، وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة ، وأحكمت طبعا ونقضت طباعا ، وربحت شبعا وخسرت لذة ؛ عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك ، وحملوك واعجزوك أن تستقل ، وقد صرت معهم كالدجاجة : تسمن لتذبح ، غير أنهم يذبحونك دلالا وملالا .

انك لتأكل من خوان أصحابك ، وتنظر اليها يأكلون ، وتطمع فى مؤاكلتهم ؛ فتشبع بالعين والبطن والرغبة ، ثم لا شىء غير هذا ؛ وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها وتحتبس فيها .

ان كان أول ما فى الحياة أن تأكل ، فأهون ما فى الحياة أن تأكل ؛ وما يقتلك شىء كاستواء الحال ، ولا يحييك شىء كتفاوتها ؛ والبطن لا يتجاوز البطن ، ولذته لذته وحدها ؛ ولكن أين أنت عن ارثك من أسلافك ، وعن العلل الباطنة التى تحركنا الى لذات اعضائنا ، ومتاع أرواحنا ، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر ، وتجعلنا نعيش من قبل الجسم كله ، لا من قبل المعدة وحدها ؟

قال السمين : تالله لقد اكسبك الفقر حكمة وحياة ، وأرانى بازائك معدوما بزوال أسلافى منى ، وأراك بازائى موجودا بوجود أسلافك فيك ، ناشدتك الله الا ما وصفت لى هذه اللذات التى تعلوا بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبع ، وتستطيل بها الى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى ؟

فقال الهزيل : انك ضخم ولكنك ابله ، أما علمت ـ ويحك ـ أن المحنة فى العيش هى فكرة وقوة ، وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة ، وأن لهفة الحرمان هى التى تضع فى الكسب لذة

الكسب ، وسعار الجوع هو الذى يجعل فى الطعام من المادة طعاما آخر من الروح ، وأن ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوضك منه الشحمة واللحمة ، فان رغباتنا لابد لها أن تجوع وتتغذى كما لابد من مثل ذلك لبطوننا ، ليوجد كل منهما حياته فى الحياة ؛ والأمور المطمئنة كهذه التى أنت فيها هى للحياة أمراض مطمئنة ، فان لم تنقص من لذتها فهى لن تزيد فى لذتها ، ولكن مكابدة الحيـاة زيادة فى الحياة نفسها ٠

وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخـلية التى تجعـل الأحسن أحسن مما يكون ، وتمنع الأسواء أن يكون أسوأ مما هو ؛ وكيف لك بهذه القوة وأنت وارع قار محصور من الدنيا بين الأيدى والأرجل كالأسد فى القفص ، صغرت أجمته ولم تزل تصغر حتى حركة فى جلد ؛ أما أنا فأسد على مخالبى ووراء أنيابى ، وغيضتى أبدا تتسع ولا تزال تتسع أبدا ، وان الحرية لتجعلنى أتشمم من الهواء لذة مثل لذة الطعام ، وأستروح من التراب لذة كلذة اللحم ٠ وما الشقاء الا خلتان من خلال النفس : أما واحدة فأن يكون فى شرهك ما يجعل الكثير قليلا ، وهذه ليست لمثلى مادمت على حد الكفاف من العيش ؛ وأما الثانية فان يكون فى طمعك ما يجعل القليل غير قليل ، وهذه ليس لها مثلى مادمت على ذلك الحد من الكفاف ، والسعادة والشقاء كالحق والباطل ، كلها من قبل الذات، لا من قبل الأسباب والعلل ؛ فمن جازاها سعد بها ، ومن عكسها عن مجراها فيها يشقى ٠

ولقد كنت الساعة أختل فأرة انجحرت فى هذا الشق ، فطمعت منها لذة وان لم أطعم لحما ، وبالأمس رمانى طفل خبيث بحجر يريد عقرى فأحدث لى وجعا ، ولكن الوجع أحدث لى الاحتراس ، وسأغشى الآن هذا الدار التى بازائنا ، فأية لذة فى السلة والخطفة والاستراق والانتهاب ، ثم الوثب شدا بعـد ذلك ؟ هل ذقت أنت

بروحك لذة الفرصة والنهزة ، أو وجدت فى قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة أو جرذ ، أو أدركت يوما فرحة النجـاة بعد الروغان من عابث أو باغ أو ظالم ؟ وهل نالتك لذة الظفر حين هولك طفل بالضرب ، فهولته أنت بالعض والعقر ، ففر عنك منهزما لا يلوى ؟

قال السمين : وفى الدنيا هذه اللذات كلها وأنا لا أدرى ؟ هلم أتوحش معك ، ليكون لى مثل نكرك ودهائك واحتيالك ، فيكون لى مثل راحتك المكدودة ، ولذتك المتعبة ، وعمرك المحكوم عليك منك وحدك ؛ وسأتصدى معك للرزق أطارده وأواثبه ، وأغاديه وأراوحه و ...

فقطع عليه الهزيل وقال :

يا صاحبى ، ان عليك من لحمك ونعمتك علامة أسرك ، فلا يلقانا أول طفل الا أهوى لك فأخذك أسيرا ، وأهوى على بالضرب لأنطلق حرا ، فأنت على نفسك بلاء ، وأنت بنفسك بلاء على .

وكانت الفأرة التى انجحرت قد رأت ما وقـع بينهمـا ، فسرها اشتغال الشر بالشر .. وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنة ؛ فوثبت وثبة من ينجو بحياته ، ودخلت فى باب مفتوح ؛ ولمحها الهزيل كما تلمح العين برقا أومض وانطفأ ، فقال للسمين : اذهب راشدا ، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعهـا من الحياة ، أن الوقوف معك ساعة هو ضياع رزق ، وكذلك إمثالك فى الدنيا ، هم بألفاظهم فى الأعلى وبمعانيهم فى الأسفل ...

بين خروفين (★)

« اجتمع ليلة الأضحى خروفان من أضاحى العيد ، فتكلما ؛ فماذا يقولان ؟ »

هذا هو الموضـوع الذى استخرجـه لى أصـغر أولادى (الأستاذ) عبد الرحمن ، وسألنى أن أكتب فيه للرسالة ، وهو أصغر قرائها سنا ، ترف عليه النسمة الثالثة عشرة من ربيع حياته (**) ــ بارك الله له فيها حاضرة ومقبلة ·

ولأستاذنا هذا كلمة هى شعاره الخاص به فى الحياة ؛ يحفظها لتحفظه ، فلا يميل عن مدرجتها ، ولا يخرج من معناها ؛ وهى هذه الكلمة العربية : « كالفرس الكريم فى ميعة حضره (١) ، كلما ذهب منه شوطا جاء شوط » · فهو يعلم من هذا أن كرم الأصل فى كرم الفعل ، ولا يغنى شىء منهما عن شىء ؛ وأن الدم الحـر الكريم يكون مضاعف القوة بطبيعته ، عظيم الأمل بهـذه القوة المضاعفة ، نزاعا الى السبق بمقدار أمله العظيم ، مترفعا عن الضعف والهوينا بهذا النزوع ، متميزا فى نبوغ عمله وابداعه باجتماع هذه الخصال فيه على أتمها وأحسنها ؛ فمن ثم لا يرمى

(*) انظر « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعى » ·

(**) كان ذلك فى سنة ١٩٣٤ ·

(١) هذا كما يقال بالعامية : فى عزجريه ·

الحر الكريم الا أن يبلغ الأمد الا يعد فى كل ما يحاوله ، فلا يألو أن يبذل جهده الى غاية الطاقة ومبلغ القدرة ، مستمدا قوة بعد قوة ، محققا السحر القادر الذى فى نفسه ، متلقيا منه وسائل الاعجاز فى أعماله ، مرسلا فى نبوغه من توهج دمه أضواء كأضواء النجم تثبت لكل ذى عينين أنه النجم لاشىء آخر ·

ولما قدم الى (الأستاذ) موضوعه فى هذا الوزن المدرسى ـ وأظنه قد نزعته حاجة مدرسية اليه ـ قلت : حبا وكرامة · وهانذا أكتبه منبعثا فيه « كالفرس الكريم فى ميعة حضره » ··· ولعل الأستاذ حين يقرؤه لا يثور فيه علامات كثيرة بقلمه الأحمر ··· ،

اجتمع ليلة الأضحى خروفان من الأضاحى فى دارنا : أما أحدهما فكبش أقرن يحمل على رأسه من قرنيه العظيمين شجرة السنين ، وقد انتهى سمنه حتى ضاق جلده بلحمه ، وسح بدنه بالشحم سحا ، فاذا تحرك خلته سحابة يضطرب بعضها فى بعض ، ويهتز شىء منها فى شىء ؛ وله وافرة (١) يجرها خلفه جرا ، فاذا رأيتها من بعيد حسبتها حملا يتبع اباه ؛ وهو أصوف قد سبغ صوفه واستكثف وتراكم عليه ؛ فاذا مشى تبختر فيه تبختر الغانية فى حلتها ، كأنما يشعر مثل شعورها أنه يلبس مسرات جسمه لا ثوب جسمه ، وهو من اجتماع قوته وجبروته أشبه بالقلعة ، يعلوها من هامته كالبرج الحربى فيه مدفعان بارزان ؛ وتراه أبدا مصعرا خده كأنه أمير من الأبطال ، اذا جلس حيث كان شعر أنه جالس فى أمره ونهيه ، لا يخرج أحد من نهيه ولا أمره ·

وأما الآخر فهو جذع فى رأس الحول الأول من مولده ، لم يدرك بعد أن يضحى ، ولكن جىء به للقرم الى لحمى الغض ؛

---

(١) ألية عظيمة ، ويقال : كبش أليان ، اذا كان عظيم الألية ·

فالأول أضحية وهذا أكولة ؛ وذلك يتصدق بلحمه كله على الفقراء ، وهذا يتصدق بثلثه ويبقى الثلث طعاما لأهل الدار ·

وكان فى لينه وترجرجه وظرف تكوينه ومرح طبعـه كأنما يصور لك المرأة آنسة رقيقة متوددة ، أما ذاك الضخم العـاتى المتبختر الشامخ ، فهو صورة الرجل الوحشى أخرجته الغابة التى تخرج الأسد والحية وجذوع الدوحة الضخمة ، وجعلت فيه من كل شىء منها شيئا يخاف ويتقى ·

وكان الجذع يثغو لا ينقطع ثغاؤه ، فقد أخذ من قطيعـه انتزاعا فأحس الوحشة وتنبهت فيه غريزة الخوف من الذئب فـزادته الى الوحشة قلقا واضطرابا ؛ وكان لا يستطيع أن ينفلت ، فهو كأنما يهرب فى الصوت ويعدو فيه عدوًا ·

أما الكبش فيرى مثل هذا مسبة لقرنيه العظيمين ، وهو اذا كان فى القطيع كان كبشه وحاميه والمقدم فيه ، فيكون القطيع معه وقى كنفه ولا يكون هو عند نفسه مع القطيع ؛ فاذا فقـد جماعته لم يكن فى منزلة المنتظر أن يلحق بغيره ليحتمى به فيقلق ويضطرب ، ولكنه فى منزلة المرتقب أن يلحق به غيره طالبا لحمايته وذماره ، فهو ساكن رابط الجأش مغتبط النفس ، كأنما يتصدق بالانتظار ··

فلما أدبر النهار وأقبل الليل ، فى جىء للخروفين بالكلأ من هذا البرسيم يعتلفانه ، فأحس الكبش أن فى الكلأ شـيئا لم يدر ما هو ، وانقبضت نفسه لما كانت تنبسط اليه من قبل ، وعرته كآبة من روحه كأنما أدركت هذه الروح أنه آخر رزقه على الأرض ، فانكسر وظهـر على وجهه معنى الذبح قبل أن يذبح ، وعاف أن يطعم ، ورجـع كأول فطامه عن أمه : لا يعرف كيف يأكل ، ولا يتناول من أكله الا أدنى تناول ·

وكأنما جثم الظلام على شحمه ولحمه ، فانه متى ثقل الهم على نفس من الأنفس ، ثقل على ساعتها التى تكون فيها ، فتطول كآبتها ويطول وقتها جميعا ، فأراد الكبش أن يتفرج مما به ، وينفس عن صدره شيئا ، وكان الصغير قد أنس الى المكان والظلمة ، وأقبـــل يعتلف ويخضم الكلأ ، فقال له الكبش : أراك فارها يا ابن أخى كأنك لا تجد ما أجد ، انى ــ والله ــ أعلم علما لا تعلمه ، وانى لأحس أن القدر طريقه علينا فىهذه الليلة ، فهو مصبحنا ما من ذلك بد ٠

قال الصغير : أتعنى الذئب ؟

قال : ليته هو ، فأنا لك به لو أنه الذئب ، ان صوفى هذا درع من أظافره ، وهو كالشبكة ينشب فيها الظفر ولا يتخلص ، ومن قرنى هذين ترس ورمح ، فأنا واثق من احراز نفسى فى قتله ، ومن أحرز نفسه من عدوه فذاك قتل عدوه ، فان لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة ، وذاك عند لأبطال فن من القتل ، وهذا القرن الملتف الأعقد المـذرب كالسنان ، لا يكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطمة عظامه ، فيحدث له من الفزع ما تنحل به قوته ، فما يواثبنى الا متخاذلا ، ولا يقـدم على الا توهم الذئبية للخروفية ، فان أساس القوة والضعف كليهما فى السوس والطبيعة ، غير أنه لا يعلم أنى خرجت من الخروفية الى الجاموسية ٠٠ ! فما يعلمه ذلك الا بقر بطنه أو التطـــويح به من فوق هذا القرن ، أقذفه قذفة عالية تلقيه من حالق ، فتدق عظـامه وتحطم قوائمـــه !

قال الصغير : فماذا تخشى بعد الذئب ؟ ان كانت العصا ، فهى انما تضرب منك الصوف لا الظهر ٠

قال الكبش : ويحك ! وأى خروف يخشى العصا ؟ وهى انما تكون عصا من يعلفه ويرعاه ، فهى تنزل عليه كما تنزل على ابن آدم

اقدار ربه ، لا حطما ولكن تاديبا أو ارشادا أو تهويلا ، ومن قبلها النعمة ، وتكون معها النعمة ، وتجيء بعدها النعمة ، أفبلغ الكفر منا ما يبلغ كفر الانسان بنعمة ربه : اذا أنعم عليه أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر انطلق ذا صراخ عريض ؟

وكيف تراني ـ ويحك ـ أخشى الذئب أو العصا ، وأنا من سلالة الكبش الأسدي ؟

قال الصغير : وما الكبش الأسدي آ وكيف علمت أنك من نجله ، ولا علم لي انا الا هذا الكلأ والعلف والماء ، والمراح والمغذى ؟

قال الكبش : لقد أدركت أمي وهي نعجة قحمة كبيرة ، وأدركت معها جدتي وقد أفرط عليها الكبر حتى ذهب فمها ، وأدركت معهما جدي وهو كبش هرم متقدد أعجف كأنه عظام مغطاة ، فعن هؤلاء أخذت ورويت وحفظت :

حدثتني أمي ، عن أبيها ، عن أبيه ، قالت : ان فخر جنسنا من الغنم يرجع الى كبش الفداء الذي فدى الله به اسماعيل بن ابرهايم عليهما السلام ، وكان كبشا أبيض أقرن أعين ، اسمه حرير .

(قال) : واعلم يا ابن أخي ان ما انفردت أنا به من العلم فلم يدركه غيري ، ان جدنا هذا كان مكسوا بالحرير لا بالصوف ، فلذلك سمي حريرا ..

(قالت أمى) : والمحفوظ عند علمائنا أن ذاك هو الكبش الذى قربه هابيل حين قتل أخاه ، لتتم البلية على هذه الأرض بدم الانسان والحيوان معا ٠

(قالوا) : فتقبل منه وأرسل الكبش الى الجنـــة ، فبقى يرعى فيها حتى كان اليوم الذى هم فيه ابراهيم أن يذبح ابنه تحقيقا لرؤيا النبوة ، وطاعة لما ابتلى به من ذلك الامتحـــان ، وليثبت أن المؤمن بالله اذا قوى ايمانه لم يجزع من أمر الله ولو جر السكين على عنق ابنه ، وهو انما يجرها على ابنه وعلى قلبه !

(قالت) : فهذا هو فخـــر جنسنا كله ٠

أما فخر سلالتى انا ، فذاك ما حدثتنى به جدتى ، ترويه عن أبيها ، عن جدها ، وذاك حين توسمت فى مخايل البطولة ، ورجت أن أحفظ التـــاريخ ٠

قالت : ان أصلنا من دمشق ، وانه كان فى هـــذه المدينة رجل سباع ، قد اتخذ شبل أسد فرباه وراضه حتى كبر وصار يطلب الخيل وتأذى به النـــاس ، فقيل للأمير (١) : هذا السبع قد آذى النـــاس، والخيـــل تنفر منه وتجد من ريحه ريح الموت ، وهو ما يزال رابضـــا ليله ونهاره على سدة بالقرب من دارك ٠ فأمر فجـــاء به الســـــباع وأدخله الى القصر ، ثم أمر بخروف مما اتخذ فى مطبخه للذبح ، وأدخلوه الى قاعة ، وجاء السباع فأطلق الأسد عليه ، واجتمعـــوا يرون كيف يسطو به ويفترسه ٠

---

(١) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة وقصها فى كتابه (الاعتبار) والأمير المذكور فى القصة هو (معين الدين انر) وزير شهاب الدين محمود وقد تصرفنا فى عبارة القصة ٠

قالت جدتى : فحدثنى أبى ، قال : حدثنى جدك : ان السباع أطلق الأسد من ساجوره (٢) وأرسله ، فكانت المعجزة التى لم يفز بها خروف ولم تؤثر قط الا عن جدنا ، فانه حسب الأسد خروفا أجم لا قرون له ، ورأى دقة خصره ، وضمور جنبيه ، ورأى له ذيلا كالآلية المفرغة الميته ، فظنه من مهازيل الغنم التى قتلها الجدب ، وكان هو شبعان ريان ، فما كذب أن حمل على الأسد ونطحه ، فانهزم السبع ما اذهله من هذه المفاجأة ، وحسب جدنا سبعا قد زاده الله أسلحة من قرنيه ، فاعتراه الخوف وأدبر لا يلوى . وطمع جدنا فيه فاتبعه ، وما زال يطارده وينطحه ، والأسد يفر من وجهه ويدور حول البركة ، والقوم قد غلبهم الضحك ، والأمير ما يملك نفسه اعجابا وفخرا بجدنا . فقال : هذا سبع لئيم ، خذوه فأخرجوه ، ثم اذبحوه ، ثم اسلخوه . فأخذ الأسد وذبح ، واعتق جدنا من الذبح، وكان لنا فى تاريخ الدنيا ، انسانها وحيوانها ، أثران عظيمان، فجدنا الأول كان فداء لابن نبى ، وجدنا الثانى كان الأسد فداءه !

★★★

قال الصغير للكبش : قلت : الذبح ، والفداء من الذبح ، فما الذبح ؟

قال الكبش : هذه السنة الجارية بعد جدنا الأعظم ، وهى الباقية آخر الدهر ، فينبغى لكل منا أن يكون فداء لابن آدم !!

قال الصغير : ابن آدم هذا الذى يخدمنا ، ويحتز لنا الكلأ ، ويقدم لنا العلف ، ويمشى وراءنا فنسحبه الى هنا وهنا .. ؟ تالله

---

(٢) الساجور : سلسلة الأسد والكلب ونحوهما .

ما أظن الدنيا الا قد انقلبت ، أو لا ، فأنت يا أخا جدى ·· قد كبرت وخــرفت !

قال الكبش : ويحك يا أبله ؟ متى تتحلل هذه العقدة التى فى عقلك ؟ انك لو علمت ما أعلم لما اطمأنت بك الأرض ، ولرجعت من القلق والاضطراب كحبة القمح فى غربال يهتز وينتفض !

قال الصغير : اتعنى ذلك الغربال وذلك القمــح وما كان فى القرية ، اذ تنــــاولت ربة الدار غربالها تنفض به قمحها ، فغافلتها ونطحت الغربال فانقلب عن يدها وانتثر الحب ، فأسرعت فيه التقاطا حتى ملأت فمى قبل أن تزيحنى المرأة عنه ··

فهز الكبش رأسه فعل من يريد الابتسام ولا يستطيعه ، وقال: أرأيت حانوت القصاب ونحن نمر اليوم فى السوق ؟

قال : وما حانوت القصاب ؟

قال : أرأيت ذلك السليخ من الغنم البيض المعــــلقة فى تلك المعاليق لا جلد عليها ولا صوف ، وليس لهــا أرؤس ولا قوائم ؟

قال الصغير : وما ذاك السليخ ؟ انه ان صح ما حدثتنى به عن أمك ، فهذه غنم الجنة ، تبيت ترعى هناك ، ثم تجىء الى الأرض مع الصبح ، وانى لمترقب شمس الغد ، لأذهب فأراها وأملأ عينى منهــا ·

قال : أسمع أيها الأبله ! ان شمس الغد ستشعر بها من تحتك لا من فوقك ·· ! لقد رأيت أخى مذ كنت جذعا مثلك ، ورأيت صاحبنا

الذى كان يعلفه ويسمنه قد أخذه ، فأضجعه ، فجثم على صدره شرا من الذئب ، وجاء بشفرة بيضاء لامعة فجرها على حلقه ، فاذا دمه يشخب ويتفجر ، وجعل المسكين ينتفض ويدحص برجله ، ثم سكن وبرد ، فقال الرجل ففصل عنقه ، ثم نخس فى جلده ونفخه حتى تطبل ورجع كالقربة التى رأيتها فى القرية مملوءة ماء فحسبتها أمك، ثم شق فيه شقا طويلا ، ثم ادخل يده بين الجلد والصفاق ، ثم كشطه وسحف الشحم عن جنبيه ، فعاد المسكين أبيض لا جلد له ولا صوف عليه ، ثم بقر بطنه وأخرج ما فيه ، ثم حطم قوائمه ، ثم شده فعلقه فصار سليخا كغنم الجنة التى زعمت ! وهذا – أيها الأبله – هو الذبح والسلخ !

قال الصغير : وما الذى أحدث هذا كله ؟

قال : الشفرة البيضاء التى يسمونها السكين !

قال الصغير : فقد كانت الشفرة عند حلقه حيال فمه ، فلماذا لم ينتزعها فيأكلها ؟

قال الكبش : أيها الأبله الذى لا يعلم شيئا ولا يحفظ شيئا ، لو كانت خضراء لأكلها !

قال : وما خطب أن تجيء الشفرة على العنق ، أفلم يكن الحبل فى عنقك أنت فجعلت تجاذب فيه الرجل حتى أعييته ، ولول أنى مشيت امامك لما انقدت له ؟

قال الكبش : ما أدرى والله كيف أفهمك أن هذا كله سيجرى عليك ، فسترى أمورا تنكرها ، فتعرف را الذبح والسلخ ، ثم تصير

اشلاء القدور تضرم عليهـــا النار ، فيأكلك ابن آدم كما تأكل انت هذا الكلأ ٠٠٠ !

قال الصغير : وماذا على أن يأكلنى ابن آدم ؟ ألا ترانى آكل العشب ؟ فهل سمعت عودا منه يقول : الرجل ، والسكين ، والـذبح، والســـلخ ٠٠ ؟

قال الكبش في نفسه : لعَمرى ان قوة الشباب في الشباب أقوى من حكمة الشيوخ فى الشيوخ ، وما نفع الحكمة اذا لم تكن الا رأيا ليس له ما يمضيه ، كرأى الشيخ الفانى : يرى بعقله الصواب حين يكون جسمه هو الخطأ مركبا فى ضعفه غلطة على غلطة لا عضـوا على عضو ٠٠٠ ؟

وهل الرأى الصحيح للعالم الذى نعيش فيه الا بالجســم الذى نعيش به ؟ وما جدوى أن يعـرف الكبير حكمـــة الموت ، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسه للمرض الهين فضلا عن المرض المعضل فضلا عن المرض المزمن فضلا عن الموت نفسه ؟ وما خطر أن يجهل الشباب تلك الحكمة وهو من حكمة النفس بحيث لا يبالى المـــوت ، فضلا عن المرض ؟

لو أذن الشاب من الفتيان بيـوم انقطـاع أجـله ، وعـلم أنه مصبحه أو ممسيه ، لأمدته نفسه بأمواح الســنين الطـويلة ، حتى ليرى أن صبح الغد كأنما يأتى من وراء ثلاثين أو أربعين سنة ، فما يتبينه الا كالفكر المنسى مضى عليه ثلاثون سنة أو أربعون ٠

ولو أذن الشيخ بيوم مصرعه ، وأيقن له مهلة الى تمام الحول، لطار به الذعر واستفرغه الوجل من ساعته ، ورأى يومه البعيد أقرب اليه من الصبح ، وابتلته طبيعة جسمه المختل بالوساوس الكثيرة ، تجتلبها له كما تجتلب الرياح صدوع المنزل الخرب ٠

فذاك بالشباب يقبض على الزمن ، فيعيش فى اليوم القصير مثل العام رخيا ممدودا ، فهو رابط جلد ، وهذا بالكبر يقبض الزمن عليه ، فيعيش فى العام الطويل مثل اليوم متلاحقا آخره بأوله ، فهو قلق طائر · ولا طبيعة للزمن الا طبيعة الشعور به ، ولا حقيقة للأيام الا ما تضعه النفس فى الأيام ·

★★★

ثم ان الكبش نظر فرأى الصغير قد أخذته عينه واستثقل نوما ، فقال : هنيئا لمن كان فيه سر الأيام الممدودة ! ان هذا السر هو كسر النبات الأخضر ، لا يقطع من ناحية الا ظهر من غيرها ساحرا هازئا ، قائلا على المصائب : هأنذا ···

فهذا الصغير ينام ملء عينيه والشفرة محدودة له ، والذبح بعد ساعات قليلة ، كأنما هو فى زمنية ، أحدهما من نفسه ، فيه ينام وبه يلهو وبه يسخر من الزمن وما فيه وما يجلبه ·

ان الألم هو فهم الألم لا غير · فما أقبح علم العقل اذا لم يكن معه جهل النفس به وانكارها اياه · حسب العلم والعلماء فى السخرية بهم وبه هذه الحقيقة من النفس · أنا لو ناطحت كبشا من قروم الكباش ، ووقفت أفكر وأدبر وأتأمل ، واعتبر شيئا بشىء ــ ذهب فكرى بقوتى ، واسترخى عصبى ، وتحلل غضبى كله ، وكان العلم وبالا على ، فان حاجتى حينئذ الى الروح وقواها وأسبابها ، أضعاف حاجتى الى العلم ، والروح لا تعرف شيئا اسمه الموت ، ولا شيئا اسمه الوجع ، وانما تعرف حظها من اليقين ، وهدوءها بهذا الحظ ، واستقرارها مؤمنة ما دامت هادئة مستيقنة

وقد والله صدق هذا الجذع الصغير ، فما على احدنا أن ياكله الإنسان ؟ وهل أكلنا نحن هذا العشب ، وأكل الانسان ايانا ، وأكل الموت للانســان ـ هل كل ذلك الا وضــع للخاتمة فى شـــكل من اشــكالها ؟

يشبه والله ان أنا احتججت على الذبح واغتممت له ، أن أكون كخروف احمق لا عقل له ، فظن اطعام الانسان اياه من باب اطعامه ابنه وابنته وامرأته ومن تجب عليه نفقته ، وهل أوجب نفقتى عــلى الانسان الا لحمى ؟ فاذا استحق له فلعمرى ما ينبغى لى ان أزعــم انه ظلمنى اللحم الا اذا أقررت على نفسى بديا أنى أنا ظلمته العلف وسرقته منه .

كل حى فانما هو شىء للحياة أعطيها على شرطها ، وشرطها ان تنتهى ، فسعادته فى أن يعرف هذا ويقرر نفسه عليه حتى يستيقنه، كما يستيقن ان المطر اول فصل الكلأ الأخضر ، فاذا فعل ذلك وايقن واطمأن ، جاءت النهاية متممة له لا ناقصة اياه ، وجرت مع العمــر مجرى واحد وكان قد عرفها واعد لها ، أما اذا حسب الحى انه شىء فى الحياة ، وقد اعطيها على شرطه هو ، ومن توهم الطمع فى البقاء والنعيم ، فكل شقاء الحى فى وهمه ذاك ، وفى عمله على هذا الوهم، اذ لا تكون النهاية حينئذ فى مجيئها الا كالعقوبة انزلت بالعمر كله ، وتجىء هادمة منغصة ، ويبلغ من تنكيدها أن تسبقها آلامها ، فتؤلم قبـــل أن تجىء ، شرا مما تؤلم حيـــن تجىء ، شرا ما تؤلم حين تجىء !

لقد كان جدى والله حكيما يوم قال لى : ان الذى يعيش مترقبا النهاية يعيش معدا لها ، فان كان معــدا لها عاش راضيا بهـــا ،

فان عش راضيا بها كان عمره فى حاضره مستمر ، كأنه فى ساعة واحدة يشهد أولها ويحس آخرها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليه ما دام ينقاد معه وينسجم فيه ، غير محاول فى الليل أن يبعد الصبح ، ولا فى الصبح أن يبعد الليل ٠

قال لى جدى : والانسان وحده هو التعس الذى يحاول طرد نهايته ، فيشقى شقاء الكبش الأخرق الذى يريد أن يطرد الليل، فيبيت ينطح الظلمة المتدجية على الأرض ، وهو لحمقه يظن أنه ينطح الليل بقرنيه ويزحزحه ٠٠ !

وكم قال لى ذلك الجد الحكيم وهو يعظنى : ان الحيوان منا اذا جمع على نفسه هما واحدا ، صار بهذا الهم انسانا تعسا شقيا، يعطى الحياة فيقبلها بنفسه على نفسه شيئا كالموت ، أو موتا بلا شىء ٠٠٠ !

★★★

وتحرك الصغير من نومه ، فقال له الكبش : انه ليقع فى قلبى أنك الساعة كنت فى شأن عظيم ، فما بالك منتفخا وأنت ههنا فى المنحر لا فى المرعى !

قال الصغير : يا أخا جدى ٠٠ لقد تحققت أنك هرمت وخرفت، وأصبحت تمج اللعاب والرأى ٠٠٠!

قال الكبش : فما ذاك ويلك ؟

قال : انك قلت : ان هذا الانسان غاد علينا بالشفرة البيضاء، ووصفت الذبح والسلخ والأكل ، وأنا الساعة قد نمت فرأيت فيما

أرى ، اننى نطحت ذلك الرجل الذى جاء بنا الى هنا ، وهجت بـه حتى صرعته ، ثم أنى أخذت الشفرة بأسنانى ، فثلمته فى نحره حتى ذبحته ، ثم افتلذت منه مضغة فلكتها فى فمى ، فما عرفتو الله فيما عرفت لخنا ولا عفنا فى الكلأ هو أقبح مذاقا منه !

ان الانسان يستطيب لحمنا ، ويتغذى بنا ، ويعيش علينا ، فما أسعدنا أن نكون لغيرنا فائدة وحياة ، واذا كان الفناء سعادة نعطيها من أنفسنا ، فهذا الفناء هو سعادة نأخذها لأنفسنا ، وما هـلاك الحى لقاء منفعة له أو منفعة منه، الا انطلاق الحقيقة التى جعلته حيا صارت حرة فانطلقت تعمل أفضل أعمالها ٠

قال الكبير : لقد صدقت والله ، ونحن بهذا أعقل وأشرف من الانسان ، فانه يقضى العمر آخذا لنفسه ، متكالبا على حظها ، ولا يعطى منها الا بالقهر والغلبة والخـوف ٠ تعال أيها الذابح ، تعـال أيها الذابح ، تعال خذ هذا اللحم وهذا الشحم ، تعال أيها الانسان لنعطيك ، تعال أيها الشحاذ ٠٠٠ !

الطفــولتان (*)

(عصمت) ابن فلان باشا طفــل مترف يكاد ينعصر لينا ، وتراه يرف رفيفا مما نشأ فى ظلال العز ، كأن لروحه من الرقة مثل ظــــل الشجرة حول الشجرة وهو بين لداته من الصبيان كالشوكة الخضراء فى أملودها الريان ، لها منظر الشوكة على مجسة لينة ناعمة تكذب أنها شوكة الا أن تيبس وتتوقح ٠

وأبوه « فلان » مدير لمديرية كذا ، اذا سئل عنه ابنــه ، قال: انه مدير المديرية ٠ لا يكاد يعدو هذا التركيب ، كأنه من غرور النعمة يأبى الا أن يجعل أباه مديرا مرتين ٠٠ وكثيرا ما تكون النعمة بذيئة وقاحا سيئة الأدب فى أولاد الأغنياء ، وكثيرا ما يكون الغنى فى أهله غنى من السيئات لا غير !

وفى رأى (عصمت) أن أباه من علو المنزلة كأنه على جنــاح النسر الطائر فى مسبحه الى النجم ، أما آباء الأطفال من النــــاس فهم عنده من سقوط المنزلة على أجنحة الذباب والبعوض !

ولا يغدو ابن المدير الى مدرســــته ولا يتروح منها الا وراءه جندى يمشى على أثره فى الغدوة والروحة ، اذ كان ابن المــدير ، اى ابن القوة الحاكمة ، فيكون هذا الجندى وراء هذا الطفل كالمنبهة

(*) انظر « عمل فى الرسالة : عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعى » ٠

له عند الناس ، تفصح شارته العسكرية بلغــات السابلة جمعاء أن هذا هو ابن المدير ، فاذا رآه العــــربى أو اليونانى أو الطليــانى أو الفرنسى أو الانجليزى أو كائن من كان من أهل الألسنة المتنافرة التى لا يفهم لسان منها عن لسان ــ فهموا جميعا من لغة هذه الشارة أن هذا هو ابن المدير ، وانه من الجندى الذى يتبعه كالمادة من القــانون وراءها الشرح ... !

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرف الصبيانى لو أنه يوم ولد لم يولد ابن ساعته كأطفال الناس ، بل ولد ابن عشر سنين كاملة لتشهد له الطبيعة أنه كبير قد انصدغت به معجزة ! والا فكيف يمشى الجندى من جنود الدولة وراء طفل فيتبعه ويخدمه وينصاع لأمره ، وهذا الجندى لو كان طريد هزيمة قد فر فى معركة من معارك الوطن وأريد تخليده فى هزيمته وتخليدها عليه بالتصوير ــ لما صــور الا جنديا فى شارته العسكرية منقادا لمثل هذا الطفل الصغير كالخادم : فى صورة يكتب تحتها : « نفاية عسكرية ! » .

★★★

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه فى مصر الا تأويل واحـــــد : هو ان مكان الشخصيات فوق المعانى ، وان صغرت تلك وجلت هذه، ومن هنا يكذب الرجل ذو المنصب ، فيرفع شخصه فــوق الفضــائل كلها ، فيكبر عن ان يكذب فيكون كذبه هو الصدق ، فلا ينـكر عليه كذبه أى صدقه ..! ويخرج من ذلك ان يتقرر فى الأمة أن كـــذب القوة صدق بالقـــوة !

وعلى هذه القاعدة يقاس غيرها من كل ما يخذل فيه الحــق، ومتى كانت الشخصيات فوق المعانى السامية طفقت هذه المعانى تموج

موجها محاولة أن تعلو ، مكرهة على أن تنزل ، فلا تستقيم على جهة ولا تنتظم على طريقة ، وتقبل بالشيء على موضعه ، ثم تكر كـرها فتدبر به الى غير موضعه ، فتضل كل طبقة من الأمة بكبرائها ، ولا تكون الأمة على هذه الحالة في كل طبقاتها الا صغارا فوقهم كبارهم، وتلك هي تهيئة الأمة للاستعباد متى ابتليت بالذى هو أكبر من كبارها ، ومن تلك تنشأ في الأمة طبيعة النفاق يحتمى به الصغر من الكبر ، وتنتظم به ألفة الحياة بين الذلة والصولة !

★★★

وتخلف الجندى ذات يوم عن موعد الرواح من المدرسة، فخرج (عصمت) فلم يجده ، فبدا له أن يتسكع في بعض طرق المدينة لينطلق فيه ابن آدم لا ابن المدير ، وحن حنينه الى المغامرة في الطبيعة ، ولبست الطرق في خياله الصغير زينتها الشعرية بأطفال الأزقة يلعبون ويتهوشون ويتعابثون ويتشاحنون ، وهم شتى كأنهم أبناء بيت واحد مست بكل من كل رحم ، اذ لا ينتسبون في اللهو الا الى الطفولة وحدها •

وانساق (عصمت) وراء خياله ، وهرب على وجهه من تلك الصورة التي يمشي فيها الجندى وراء ابن المدير ، وتغلغل في الأزقة لا يبالى ما يعرفه منها وما لا يعرفه ، اذ كان يسير في طرق جديدة على عينه ، كأنما يحلم بها في مدينة من مدن النوم •

وانتهى الى كبكبة من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبيانى، فانتبذ ناحية ووقف يصغى اليهم متهيبا أن يقدم ، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان ، وتسمع فاذا خبيث منهم يعلم الآخر كيف يضرب اذا اعتدى أو اعتدى عليه ، فيقول له : اضرب أينما ضربت ، من

رأسه ، من وجهه ، من الحلقوم ، من مراق البطن ، قال الآخر : واذا مات ؟ فقال الخبيث : واذا مات فلا تقل انى أنا علمتك ۰۰۰ !

وسمع طفلا يقول لصاحبه : أما قلت لك : انه تعــلم السرقة من رؤيته اللصوص فى السيما ؟ فأجابه صاحبه : وهـــل قال له أولئك اللصوص الذين فى السيما : كن لصا واعمل مثلنا ؟

وقام منهم شيطان فقال : يا أولاد البلد ، أنا المدير ! تعالوا وقولوا لى : « يا ســـعادة البـاشا ، ان أولادنا يريدون الذهاب الى المدارس ، لكننا لا نســتطيع أن ندفع لهم المصروفات ۰۰» فقال الأولاد فى صوت واحد : « يا سعادة الباشا ، ان أولادنا يريدون الذهاب الى المدارس ، ولكنا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات » ! فرد عليهــم (سعادته) : اشتروا لأولادكم أحذية وطرابيش وثيابا نظيفة ، وأنا أدفع لهم المصروفات ۰

فنظر اليه خبيث منهم وقال : يا سعادة المدير ، وأنت فلماذا لم يشتر لك أبوك حــذاء ۰۰۰ ؟

وقال طفل صغير : أنا ابنك يا ســـعادة المدير ، فأرسلنى الى المدرسة وقت الظهر فقط ۰۰۰ !

★★★

وكان (عصمت) يسمع ونفسه تهتز وترف باحساسها ، كالورقة الخضراء عليهــا طل النــدى ، وأخــذ قلبــه يتفتح فى شعاع الكلام كالزهرة فى الشمس ، وسكر بما يسكر به الأطفال حين تقــدم لهم الطبيعة مكان اللهو معدا مهيأ ، كالحانة ليس فيها الا أسباب السكر

والنشوة ، وتمام لذتها أن الزمن فيهـــا منسى ، وان العقل فيهـــا مهمـــل ...

وأحس ابن المدير أن هذه الطبيعة حين ينطـــلق فيها جماعة الأطفال على سجيتهم وسجيتها ـ انما هى المدرسة التى لا جدران لها ، وهى تربية الوجود للطفـــل تربية تتناوله من أدق أعصابه ، فتبدد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت ، وتفرغه منها ثم تملؤه بما هو أتم وأزيد ، وبذلك تكسبه نمو نشاطه ، وتعلمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط ، فتهديه الى أن يبدع بنفسه ولا ينتظر من يبدع له ، وتجعل خطاه دائما وراء أشياء جديدة ، فتسدده من هذا كله الى سر الابداع والابتكار ، وتلقيه العلم الأعظم فى هذه الحياة ، علم نضرة نفسه وسرورها ومرحها ، تطبعه على المزاج المتطلق المتهلل المتفائل وتتدفق به على دنياه كالفيضان فى النهر ، تفور الحياة فيه وتفور به ، لا كأطفال المدارس الخامدين ، تعرف للواحد منهم شكل الطفل وليس له وجود ولا عالمه ، فيكون المسكين فى الحياة ولا يجـدها ، ثم تراه طفلا صغيرا وقد جمعوا له هموم رجل كامل !

ودبت روح الأرض دبيبها فى (عصمت) ، وأوحت الى قلبـه بأسرارها ، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمار الأغبيـاء من أولاد الفقراء والمساكين ، هم السعداء بطفولتهم ، وأنه هو وأمثـــاله هم الفقراء والمساكين فى الطفولة ، أن ذلك الجندى الذى يمشى وراءه لتعظيمه انما هو سجن ، وأن الألعاب خير من العلوم ، اذ كانت هى طفلية الطفل فى وقتها ، أما العلوم فرجولة ملزقة به قبل وقتها توقره وتحوله عن طباعه ، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أســـاس الرجولة ، فينشأ بين ذلك لا الى هذه ولا الا هذه ، ويكون فى الأول طفلا رجلا، ثم يكون فى الآخر رجلا طفلا .

واحس مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكــون هى بيته الواسع الذى لا يتحرج أن يصرخ فيه صراخه الطبيعى ، ويتحرك حركته الطبيعية ، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلبة ، ولا حاملو العصى من الضباط ، بل حق البيت الواسع أن تكون فيه الأبوة الواســعة ، والأخوة التى تنفسح للمئات ، فيمر الطفل المتعلم فى نشأته من منزل الى منزل ، على تدريج فى التوسع شيئا فشيئا ، من البيت ، الى المدرسة ، الى العــالم .

★★★

وكان (عصمت) يحلم بهذه الأحلام الفلسفية ، وطفولته تشب وتسترجل ، ورخاوته تشتد وتتماسك ، وكانت حــركات الأطفــــال كأنها تحركه من داخله ، فهو منهم كالطفل فى السيما حين يشـــــهد الملاكمين والمتصـــارعين ، يستطيره الفـــرح ، ويتوثب فيه الطفل الطبيعى بمرحه وعنفوانه ، وتتقلص عضـــلاته . ويتكشف جلده ، وتجتمع قوته ، حتى كأنه سيظاهر أحد الخصمين ويلكم الآخر فيكوره ويصرعه ، ويفض معــركة الضرب الحــديدى بضربتــه الليـنــة الحريرية ... !

فما لبث صاحبنا الغــــرير الناعم أن تخشــن ، وما كذب أن اقتحم ، وكأنما أقبل على روحه الشارع والأطفال ولهوهم وعبثهم ، إقبال الجو على الطير الحبيس المعلق فى مسمار اذا انفرج عنــه القفص ، واقبال الغابة على الوحش القنيص اذا وثب وثبة الحيــاة فطار بها ، واقبال الفلاة على الظبى الأســير اذا ناوص فأفلت من الحبــالة .

وتقدم فادغم فى الجماعة وقال لهم : أنا ابن المدير فنظـروا اليه جميعا ، ثم نظر بعضهم الى بعض ، وسفرت أفكارهم الصغيرة بين اعينهم ، وقال منهم قائل : ان حذاءه وثيـابه وطربوشه كلهـا تقـــول ان اباه المدير ٠

فقال آخر : ووجهه يقول ان أمه امرأة المدير ٠٠

فقال الثالث : ليست كأمك يا بعطيطى ولا كأم جعلص ! (١)٠

قال الرابع : يا ويلك لو سمع جعلص ، فان لكمـاته حينئـذ لا تترك أمك تعرف وجهك من القفا !

قال الخامس : ومن جعلص هذا ؟ فليأت لأريكم كيف أصارعه، فأجتـذبه ، فأعصره بين يدى ، فاعتقـل رجله برجلى ، فأدفعـه ، فيتخاذل ، فأعركه ، فيخر على وجهه ، فأسمره فى الأرض بمسمار!

فقال السادس : ها ها ! انك تصف بأدق الوصف ما يفعله جعلص لو تناولك ى يده ٠٠٠!

فصـاح السـابع : ويلكم ! ها هـو ذا جعلص ! جعلص ! جعلص !

فتطاير الباقون يمينا وشـمالا كالورق الجاف تحت الشجر ضربته الريح العاصف ، وقهقه الصـبى من ورائهم ، فثابوا الى انفسهم وتراجعوا ، وقال المستطيل منهم : أما انى كنت أريد أن يعدو جعلص ورائى ، فأستطرد اليه قليلا أطمعه فى نفسى ، ثم أرتد

---

(١) للعامة أسماء ونسب غريبة ، منها هذه ٠

عليه فآخذه كما فعل « ماشيست الجبار » (١) فى ذلك المنظـر الذى شـــاهدناه ٠

وقهقه الصبيان جميعا ٠٠٠ ! ثم أحاطوا (بعصمت) احــاطة العشـــاق بمعشـــوقة جميلة ، يحـــاول كل منهم أن يكون المقرب المخصوص بالحظوة ، لا من أجل أنه ابن المدير فحسب ، ولكن من أجل أن ابن المدير تكون معه القروش ٠٠ فلو وجدت هذه القــروش مع ابن زبال لما منعه نسـبه أن يكون أمير الساعة بينهم الى أن تنفد قروشه فيعود ابن زبال ٠٠ !

وتنافسوا فى (عصمت) وملاعبته والاختصاص به ، فلو جاء المدير نفسه يلعب مع آبائهم يركبهم ويركبونه ، وهم بين نجار وحداد، وبناء وحمال ، وحوذى وطباخ ، وأمثالهم من ذوى المهنة والمكسبة الضئيلة لكانت مطامع هؤلاء الأطفال فى ابن المـدير ، أكبـر من مطامع الآباء فى المدير ٠

وجرت المنافسة بينهم مجراها ، فانقلبت الى ملاحاة ، ورجعت هذه الملاحاة الى مشاحنة ، وعاد ان المدير هدفا للجميــع يدافعون عنه كأنما يعتدون عليه ، اذ لا يقصد أحد منهم أحدا بالغيظ الا تعمد غيظ حبيبه ، ليكون انكأ له وأشد عليه !

وتظــاهروا بعضـــهم على بعض ، فنشأت بينهم الطوائل ، وأفسدهم هذا الغنى المتمثـل بينهم ٠

---

(١) بحار ايطالى كالمارد عريض الألواح وثيق التركيب يعجب الأطفال به أشد الاعجاب واذا شاهدوه فى السينما كاد تمثيله يشب بهؤلاء الأطفال الى سن الرجولة فى ساعة واحدة ٠٠

وياما أعجب ادراك الطفولة والهامها ! فقد اجتمعت نفوسهم على رأى واحد ، فتحولوا جميعا الى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير ، فخاطره أحدهم فى اللعب فقمره ، فأبى الا أن يعلو ظهره ويركبه ، وأبى عليه ابن المدير ودافعه ، يرى ذلك ثلما فى شرفه ، ونسبه وسطوة أبيه ، فلم يك يعتل بهذه العلة ويذكر أباه ليعرفهم آباءهم ... حتى هاجت كبرياؤهم ، وثارت دفائنهم ، ورقصت شياطين رءوسهم وبذلك وضع الغبى حقد الفقر بازاء سخرية الغنى، فالقى بينهم مسئلة المسائل الكبرى فى هذا العالم ، وطرحها للحل ... !

وتنفشوا للصولة عليه ، فسخر منه أحدهم ، ثم هزأ به الآخر، واخرج الثالث لسانه ، وصدمه الرابع بمنكبه ، وأفحش عليه الخامس ؛ ولكزه السادس ، وحثا السابع فى وجهه التراب !

وجهد المسكين أن يفر من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جدران، فبطل اقدامه واحجامه ، ووقف بينهم كما كتب الله ... ! ثم أخذته أيديهم فانجدل على الأرض ، فتجاذبوه يمرغونه فى التراب !

وهم كذلك اذا نقلب كبيرهم على وجهه ، وانكفأ الذى يليه ، وأزيح الثالث ، ولطم الرابع فنظروا ، فصاحوا جميعا : « جعلص! جعلص! » وتواثبوا يشتدون هربا .

وقام (عصمت) ينتخل التراب من ثيابه وهو يبكى بدمعه ، وثيابه تبكى بترابها ... ! ووقف ينظر هذا الذى كشفهم عنه وشردتهم صولته ، فاذا جعلص وعليه رجفان من الغضب ؛ وقه تبرطمت شفته ، وتقبض وجهه ، كما يكون «ماشيست» فى معاركه حين يدفع عن الضعفاء .

وهو طفل فى العاشرة من لدات (عصمت) ، غير انه محتنك فى سن رجل صغير : غليظ عبل شـــديد الجبلة متراكب بعضـــه على بعض (١) ، كأنه جنى متقاصر يهم أن يطول منه المارد ، فأنس بــه (عصمت) ، واطمأن الى قوته يشكو له ويبكى !

قال جعلص : ما اسمك !

قال : أنا ابن المدير ٠٠٠ !.

قال جعلص : لا تبك يابن المدير ، تعلم أن تكون جلدا ، فان الضرب ليس بذل ولا عار ، ولكن الدموع هى تجعله ذلا وعارا : ان الدموع لتجعل الرجل أنثى ، نحن يابن المدير نعيش طول حيـاتنا اما فى ضرب الفقر أو ضرب الناس ، هذا من هذا ، ولكنك غنى يابن المدير ، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخم منتفخ ، ولكنه ينكسر بلمسة، وحشوه مثل القطن !

ماذا تتعلم فى المدرســـة يابن المدير اذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلا يأكل من يريد اكله ، وماذا تعرف اذا لم تكن تعـــرف كيف تصبر على الشر يوم الشر ، وكيف تصبر للخير يوم الخير ، فتكون دائما على الحالتين فى خير ؟

قال عصمت : آه لو كان معى العسكرى !

قال جعلص : ويحك ! لو ضربوا عنزا لما قالت : آه لو كان معى العســكرى !

---

(١) أى شديد فتل العضل مكتنز اللحم ٠

قال عصمت : فمن أين هذه القوة ؟

قال جعلص: من أنى أعتمل بيدى فأنا أشتد، واذا رجعت أكلت طعامى ، أما أنت فتسترخى ، فاذا جعت أكلك طعامك ، ثم من أنى ليس لى عسكرى ... !

قال عصمت : بل القوة من أنك لست مثلنا فى المدرسة ؟

قال جعلص : نعم ، فأنت يابن المدرسة كأنك طفل من ورق وكراسات لا من لحم ، وكأن عظامك من طباشير ! أنت يابن المدرسة هو أنت الذى سيكون بعد عشرين سنة ، ولا يعلم الا الله كيف يكون، وأما أنا ابن الحياة ، فأنا من الآن ، وعلى أن أكون « أنا » من الآن !

أنت ...

★★★

وهنا ادركهما العسكرى المسخر لابن المدير، وكان كالمجنون يطير على وجهه فى الطرق يبحث عن (عصمت) ، لا حبا فيه ، ولكن خوفا من أبيه ، فما كاد يرى هذا العفر على أثوابه حتى رنت صفعته على وجه المسكين جعلص !

فصعر هذا خده ، ورشق عصمت بنظره ، وانطلق يعدو عدو الظليم !

يا للعدالة ! كانت الصفعة على وجه ابن الفقير ، وكان الباكى منها ابن الغنى ‥ !

★★★

وأنتم أيها الفقــراء ، حسبكم الطولة ، فليس غنى بطل الحرب فى المــال والنعيم ، ولكن الجراح والمشقات فى جسمه وتاريخه ٠

أحـلام في الشـارع (١) (★)

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد، ويلتحفان جوا رخاميا في برده وصلابته على جسميهما ·

الطفل متكبكب في ثوبه كأنه جسم قطع وركمت أعضاؤه بعضها على بعض ، وسجيت بثـوب ، ورمى الرأس من فوقهـا فمـال على خـده ·

والفتاة كأنها من الهزال رسم مخطط لامرأة بدأها المصور ثم أغفلها اذ لم تعجبه ! كتب الفقر عليها للأعين ما يكتب الذبول عـلى الزهرة : أنها صارت قشا ··

نائمة فى صورة ميتة ، أو كميته فى صورة نائمة ، وقد انسكب ضوء القمر على وجهها ، وبقى وجه أخيها فى الظل ، كأن فى السماء ملكا وجه المصباح اليها وحدها ، اذ عرف أن الطفل ليس فى وجهه علامة هم ، وأن فى وجهها هى كل همها وهم أخيها ·

من أجل أنها أنثى قد خلقت لتلد ـ خلق لهـا قلب يحمل الهموم ويلدها ويربيها ·

---

(١) منظر طفل متشرد كان هو وأخته نائمين على عتبة (البنك) ·

(★) اقرأ قصة هذه المقالة فى (عمله فى الرسالة) من كتابنا (حياة الرافعى) ·

من أجل انها أعدت للامومة ، تتألم دائما فى الحياة آلاما فيها معنى انفجار الـدم •

من أجل انها هى التى تزيد الوجود ، يزيد هذا الوجود دائمـا فى أحـزانها •

واذا كانت بطبيعتها تقاسى الألم لا يطـاق حين تلد فرحها ، فكيف بها فى الحزن •• !

★★★

وكان رأس الطفل الى صدر اخته ، وقد نام مطمئنا الى الوجود النسوى ، الذى لابد منـه لكل طفـل مثـله ما دام الطفـل اذا خرج من بطن أمه خرج الى الدنيا والى صدرها معا •

ونامت هى ويدها مرسلة على اخيها كيد الأم على طفلها • يا الهى ! نامت ويدها مستيقظة ! •

أهما طفلان ؟ أم كلاهما تمثال للانسـانية التى شقيت بالسعداء ، فعـوضها الله من رحمتـه ألا تجـد شـقيا مثلها الا تضاعفت سعادتها به ؟ •

تمثالان يصوران كيف يسرى قلب أحد الحبيبين فى الجسم الآخر فيجعل له وجوداً فوق الدنيا لا تصل الدنيا اليه بفقرهـا وغناها ، ولا سعادتها وشقائها ، لأنه وجود الحب لا وجـود العمر ، وجود سحرى ليس فيه معنى للكلمات ، فلا فرق بين

المال والتراب ، والأمير والصعلوك ، ان اللغـة هنـاك احسـاس الدم ، وان المعنى ليس فى اشياء المادة ولكن فى أشياء الارادة ٠

وهل تحيا الألفاظ مع الموت فيكون بعده للمـال معنى وللتراب معنى ٠٠٠ ؟ هى كذلك فى الحب الذى يفعل شبيها بما يفعله الموت فى نقله الحيـاة الى عالم آخـر ، بيد أن أحد العالمين وراء الدنيا ، والآخر وراء النفس ٠

★★★

تحت يد الأخت المدودة ينـام الطفل المسـكين ، ومن شعوره بهذه اليد ، خف ثقل الدنيا على قلبه ٠٠

لم يبال أن تنبذه العالم كله ، مادام يجد فى أخته عالم قلبه الصغير ، وكأنه فرخ من فراخ الطير فى عشه المعلق ، وقد جمع لحمه الغض الأحمر تحت جناح أمه ، فأحس أهنأ السعادة حين ضيق فى نفسه الكون العظيم ، وجعله وجوداً من الريش ٠

وكذلك يسعد كل من يملك قوة تغيير الحقائق وتبـديلها ، وفى هذا تفعل الطفولة فى نشأة عمرها ما لا تفعـل بعضه معجـزات الفلسفة العليا فى جملة اعمار الفلاسفة ٠

وما صنع الذين جنوا بالذهب ، ولا الذين فتنوا بالسلطة ، ولا الذين هلكوا بالحب ، ولا الذين تحطموا بالشهوات ـ الا أنهم حاولوا عبثا أن يرشوا رحمة الله لتعطيهم فى الذهب والسـلطة والحب والشهوات ـ ما نولته هذا الطفل المسكين النائم فى اشـعة الكواكب تحت ذراع كوكب روحه الأرضى ٠

الا ان أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكـــه أن يشـترى الطريقة الهنيئة التى ينبض بها الساعة قلب هذا الطفل ٠

★★★

وقفت أشهد الطفلين وأنا مستيقن أن حولهما ملائكة تصعد وملائكة تنزل ، وقلت : هذا موضع من مواضع الرحمة ٠ فان الله مع المنكسرة قلوبهم ، ولعلى أن أتعرض لنفحـة من نفحاتها ، ولعل ملكا كريما يقـول : وهذا يائس آخر ، فيرفنى بجناحه رفـة ما أحوج نفسى اليها ، تجد بها فى الأرض لمسة من ذلك النور المتلالىء فوق الشمس والقمر ٠

وظهر لى بناء (البنك) فى ظلمة الليل من مرأى الغلامين أسود كالحا ، وكأنه سجن اقفل على شيطان يمسكه الى الصبح ، ثم يفتح له لينطلق معمراً ، أى مخربا ٠٠ أو هو جسم جبـــار كفر بالله وبالانسانية ولم يؤمن الا بنفسه وحظوظ نفسه ، فمسخه الله بناء ، وأحـــاطه من هـذا الظـلام الأســود بمعـانى آثامه وكفـــره ٠٠٠٠

ياعجبا ! بطنان جائعان فى أطمار بالية يبيتان على الطوى والهم ، ثم لا يكون وسادهما الاعتبة البنك ! ترى من الذى لعن البنك) بهذه اللعنة الحيـــة ؟ ومن الذى وضـــع هــذين القلبين الفــارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أن ليس البنـك خـــزائن حديدية يملؤها الذهب ، ولكنه خزائن قلبية يملؤها الحب ٠٠ ؟



وقفت أرى الطفلين رؤية فكر ورؤية شعر معا ، فاذا الفكر والشعر يمتدان بيني وبين أحلامهما ، ودخلت في نفسين مضهما الهم واشتد عليهما الفقر ، وما من شيء في الحياة الا كادهما وعاسرهما ، ونست نومتي الشعرية ··

قال الطفل لأخته : هلمي فلنذهب من هنا فنقف على باب (السيما) نتفرج مما بنا ، فنرى أولاد الأغنياء الذين لهم أب وأم ·

انظرى ها هم أولاء يرى عليهم أثر الغنى ، وتعرف فيهم روح النعمة ، وقد شبعوا ·· انهم يلبسون لحما على عظامهم ، أما نحن فنلبس على عظامنا جلداً كجلد الحذاء ، انهم أولاد أهليهم ، أما نحن فأولاد الأرض · هم أطفال ، ونحن حطب انساني يابس ، يعيشون في الحياة ثم يموتون ، ما نحن فعيشنا هو سكرات الموت الى أن نموت ، لهم عيش وموت ، ولنا الموت مكررا ·

ويلى على ذلك الطفل الأبيض السمين ، المحسن البزة ، الأنيق الشارة ، ذاك الذى يأكل الحلوى أكل لص قد سرق طماسا فأسرع يحدر في جوفه ما سرق ، هو الغنى الذى جعله يبتلع بهذه الشراهة ، كأنما يشرب ما يأكل ، أو له حلق غير الحلوق ، ونحن – اذا أكلنا – نغص بالخبز لا أدم معه ، واذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجد الا البشيع من الطعام ، وأصبناه عفنا أو فاسدا لا يسوغ في الحلق ، فاذا انخفضنا فليس الا ما نتقمم من قشور الأرض ومن حتات الخبز كالدواب والكلاب ، وان لم نجد ومسنا العدم وقفنا نتحين طعام قوم في دار أو نزل ، فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا ، ولا نطمع أن نستطعمهم ، والا أطعمونا ضربا ، فنكون قد جئناهم بألم واحد فردونا بألمين ، ونفقد بالضرب ما كان يمسك رمقتنا من الاحتمال والصبر ·

فيأكلوا ، ونحن نتضور جوعا ولا نأكل ، لنعود فنجوع ولا نأكل . وهم بين سمع أهليهـم وبصرهم ، ما من أنة الا وقعت فى قلب ، وما من كلمة الا وجدت اجابة ، ونحن بين سمع الشـــوارع وبصرها ، أنين ضائع ، ودموع غير مرحومة ! ·

آه لو كبرت فصرت رجلا طويلا عريضا ؟ أتدرين مـاذا أصنع ؟ ·

ـ ماذا تصنع يا أحمد ؟ ·

ـ اننى أخنق بيدى كل هؤلاء الأطفال ·

ـ سوءة لك يا أحمد ! كل طفل من هؤلاء له أم مثل أمنا التى ماتت وله أخت مثلى ، فما عسى ينزل بى لو ثكلتك اذا خنقك رجل طويل عريض ؟ ·

ـ لا ، لا أخنقهم ، بل سأرضيهم من نفسى . انا أريد أن أصير رجلا مثل (المدير) الذى رأيناه فى سيارته اليوم على حـــال من السطوة تعلن أنه المدير ·· أتدرين ماذا أصنع ؟ ·

ـ ماذا تصنع يا أحمد ؟ ·

ـ أرأيت عربة الاسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشا للرجل الهرم المحطم الذى أغمى عليه فى الطريق ؟ سـمعتهم يقولون : ان المدير هو الذى أمر باتخاذ هذه العربة ، ولكنه رجل غفل لم يتعلم من الحياة مثلنا ، ولم تحكمه تجارب الدنيا ، فالذى يموت بالفجاءة أو غيرها لا يحييه المدير ولا غير المدير ، والذى يقع فى الطريق يجد من الناس من يتدرونـه لنجدتـــه

واسعافه بقلوب انسانية رحيمة ، لا بقلب سواق عربة ينتظر المصيبة على أنها رزق وعيش ! •

ان عربات الاسعاف هذه يجب أن يكون فيها أكل •••• ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع الى البيوت والمدارس ، وان لم يكن للطفل أم تطعمه وتؤويه ، فلتصنع له أم ! •

كل شيء أراه لا أراه الا على الغلط كأن الدنيا منقلبة أو مدبرة ادبارها ، وما قط رأيت الأمور فى بلادنا جارية على مجاريها ، فهؤلاء الحكام لا ينبغى أن يكونوا الا من أولاد صالحى الفقراء ، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة ، لا بقانون الغنى والنسوة ، ولينقحموا الأمور العظيمة المشتبهة بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس وخلق ودين ورحمة ، فانه لا ينهزم فى معركة الحوادث الا روح النعمة فى أهل النعمة ، وأخلاق اللين فى أهل اللين ، وبهؤلاء لم يبرح الشرق من هزيمة سياسية فى كل حادثة سياسية •

ان للحكم لحما ودما هو لحم الحاكم ودمه ، فان كان صلبا خشنا فيه روح الأرض وروح السماء فذاك ، وإلا قتل اللين والترف الحكم والحاكم جميعا • وهؤلاء الحكام من أولاد الأغنياء ، لا يكون لهم هم الا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ، اذ السلطة درجة فوق الغنى ، ومن نال هذه استشرف لتلك ، فاذا جمعوهما كان منهما الخلق الظالم الذى يصور لهم الاعتداء قوة وسطوة وعلوا ، من حيث عدموا الخلق الرحيم الذى يصور لهم هذه القوة ضعفا وجبنا ونذالة • ان أحدهم اذا حكم وتسلط أراد أن يضرب ، ثم لم تكن ضربته الأولى الا فى المبدأ الاجتماعى

للأمة ، أو فى الأصل الأدبى للانسانية . ويحـرصون عـلى ما بـه تمامهم ، أى على السلطة ، أى على الحـكم ، فيحملهم ذلك عـلى أن يتكلفوا للحـرص أخلاقه ، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه ، من المداراة والمصانعة والمهاونة ، نازلا فنازلا الى درك بعيد ، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القـانون ، ما داموا هم القوة .

ـ وماذا تريد ان يصنع اولاد الاغنياء يا احمد ؟ ..

ـ أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة، ليجدوا عملا شريفا يصيبون منه رزقهم بأيديهم لا بأيدى آبائهـم ، فانه والله لولا العمل الاجتماعى لما كان فرق بين ابن أمير متبطـل فى أملاك أبيه من القصور والضياع ، وابن فقير متبطل فى أملاك المجلس البلدى ، من الأزقة والشوارع .

وابن الأمير اذا كان نجاراً أو حداداً أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة ، وتعففه وكرمه ، فيتعلم سواد النـــاس منه الأمانة والصدق ، اذ هو لا يكذب ولا يسرق ما دام فـــوق الاضطرار ، ولا كذلك ابن الفقير الذى يضطره العيش أن يكون تاجرا أو صـــانعا ، فتكون حرفته التجـارة وهى الســـرقة ، أو الصناعة وهى الغش ، ويكون فى الناس أكثر عمـره مادة كـذب واثم ولصوصية .

آه لو صرت مديرا ! اتدرين ماذا اصنع ؟ .

ـ ماذا تصنع يا احمد ؟ .

ـ اعمد الى الأغنياء فأردهم بالقـوة الى الانســانية ، واحملهم عليها حملا ، وأصلح فيهم صـفاتها التى افسـدها الترف

واللين والنعمة ، ثم اصطبح ما أخل به الفقر من صفات الانسانية بالفقراء ، وحملهم على ذلك حملا ، فيستوى هـؤلاء وهـؤلاء ، ويتقاربون على أصـل فى الـدم ان لم يلـده آباؤهم ولـده القانون. الا ان سقوط امتنا هذه لم يأت الا من تعادى الصفات الانسانية فى أفرادها ، فتقطع ما بينهم ، فهم أعداء فى وطنهم ، وان كان أسمهم أهل وطنهـم .

ومتى أحكمت الصفات الانسانية فى الأمة كلهـا ودانى بعضها بعضا — صار قانون كل فرد كلمتين لا كلمة واحدة كما هو الآن . القانون الآن (حقى) ، ونحن نريد أن يكون (حقى ، وواجبى) ، وما أهلك الفقراء بالأغنياء ، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام — الا قانون الكلمة الواحدة .

★★★

أما أحمـد المدير .. لست المـدير بمـا فى نفس أحمد ، ولا بمعدته وبطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده ... كلا ، أنا عمل اجتماعى منظم يحكم أعمال الناس بالعدل ، أنا خلق ثابت يوجه أخلاقهم بالقوة ، أنا الحياة الأم مع الحياة الأطفال الأخوة فى هذا البيت الذى يسمى الوطن ، أنا الرحمة ، عندى الجنة ، ولكن عندى جهنم أيضا ما دام فى الناس من يعصى ، أنا بكل ذلك لست أحمد ، لكنى الاصلاح .

هاأنذا قد صرت مديراً أعس فى الطريق بالليل وأتفقد الناس ونوائبهـم .

من ارى ؟ هذا طفل وأخته نائمان على عتبة البنك فى حياة كأهدامهما المرقعة ، فى دنيا تمزقت عليهما ! قم يا بنى ! لا ترع، انما انا كأبيك ، تقول : اسمك احمد ، واسم أختك أمينة ؟٠

تقول : انك ما نمت من الجوع ، ولكن مضمضت عينك بشعاع النوم ؟ ٠

يا ولدى المسكينين ٠ بأى ذنب من ذنوبكما دقتكما الأيام دقا وطحنتكما طحنا ؟ وبأى فضيلة من الفضائل يكون ابن فلان باشا فى هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنقان فيه ، ما الذى ضر الوطن منكما فتموتا ، وما الذى نفع الوطن منهما فيعيشا ؟ ٠

ان كنت يا بنى لا تملك لنفسك الانتصار من هذه الظليمة ، فأنا املكها لك ، وانما انا المظلوم الى ان تنتصر ، وانما أنا الضعيف الى آخذ لك الحق ! ٠

الى يا ابن فلان باشا وبنت فلان باشا ٠

يا هـذا ، عليك اخاك احمد ولتكن به حفيا ، ويا هـذه ، عليك اختك الآنسة امينة ٠٠٠٠٠

اتأبيان ، انفرة من الانسانية ، وتمردا على الفضيلة ؟ أحقا بلا واجب ؟ دائما قانون الكلمة الواحدة ! خلقتما ابيضين سخرية من القدر وأنتما فى النفس من أحبوشة الزنج ومناكيد العبيد !٠

ورفع أحمد يده ٠٠٠

وكان الشرطى الذى يقوم على هذا الشارع ، واليه حراسة البنك ، قد توسنهما (١) ودخلته الريبة ، فانتهى اليهما فى تلك اللحظة ، وقبل ان تنزل يد سعادة المدير بالصفعة على وجــه ابن الباشا وبنت الباشا ، كان هذا الشرطى قد ركله برجله ، فوثب قائما واجتذب اخته وانطلقا عدو الخل من الهوب السوط .

. . . .

وتمجدت الفضيلة كعادتها . ! .. ان مسكينا حلم بها ..

---

(١) توسنهما : أتاهما نائمين .

أحلام في قصر (*)

كان فلان ابن الأمير فلان يتنيل في نفسه بأنه مشتق ممن يضع القوانين لا ممن يخضع لها ، فكان تياها صلفا يشمخ على قومه بأنه ابن أمير ، ويختال في الناس بأن له جدا من الامراء ، ويرى من تجبره أن ثيابه على أعطافه كحدود المملكة على المملكة لأن له أصلا في الملوك .

وكان أبوه من الأمراء الذين ولدوا وفي دمهم شعاع السيف ، وبريق التاج ، ونخوة الظفر ، وعز القهر والغلبة ، ولكن زمنه ضرب الحصار عليه وأفضت الدولة الى غيره ، فتراجعت فيه ملكات الحرب ، من فتح الأرض الى شراء الارض ، ومن تشييد الامارات الى تشييد العمارات ، ومن ادارة معركة الأبطال الى ادارة معركة المال ، وغبر دهره يملك ليجمع حتى فأصبحت دفاتر حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة .

وبعض أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولاد أمراء ، فيكونون من التكبر والغرور كأنما رضوا من الله أن يرسلهم الى هذه الدنيا ولكن بشروط ...



(*) انبعثت خواطر هذه المقالة في نفس الرافعي على أثر كتابته مقالة (أحلام في الشارع) السابقة ولكنه لم يكتبها الا بعد زمان .

وانتقل الأمير البخيل الى رحمة الله ، وترك المال وأخذ معه الأرقام وحدها يحاسب عنها ، فورثه ابنه وأمر يده فى ذلك المال يبعثره ، وكانت الأقدار قد كتبت عليه هذه الكلمة : « غير قابل للاحسان » . فمحتها بعد موت أبيه ، وكتبت فى مكانها هذه الكلمة : « جمع للشيطان » .

أما الشيطان فكان له عمل خاص فى خدمة هذا الشاب ، كعمل خازن الثياب لسيده ، غير أنه لا يلبسه ثيابا ، بل أفكارا وآراء واخيلة . وكان يجهد أن يدخل الدنيا كلها الى أعصابه ليخرج منها دنيا جديدة مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة ، وهى أعصاب مريضة ثائرة متلهبة لا يكفيها ما يكفى غيرها فلا تبرح تسأل الشيطان بين الحين والحين : ألا توجد لذة جديدة غير معروفة ؟ ألا يستطيع ابليس القرن العشرين أن يخترع لذة مبتكرة ؟ ألا تكون الحياة الا على هذه الوتيرة من صبحها لصبحها ؟ .

كان الشاب كالذى يريد من ابليس أن يخترع له كأسا تسع نهرا من الخمر ، أو يجد له امرأة واحدة وفيها كل فنون النساء واختلافهن ، وكان يريد من الشيطان أن يعينه فى اللذة على الاستغراق الروحانى ، ويغمره بمثل التجليات القدسية التى تنتهى اليها النفس من حدة الطرب وحدة الشوق ، وذلك فوق طاقة ابليس ، ومن ثم كان معه فى جهد عظيم حتى ضجر منه ذات مرة فهم أن يرفع يده عنه ويدعه يدخل الى المسجد فيصلى مع بعض الأمراء الصالحين ..

وهؤلاء الفساق الكثيرو المال انما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا ، فهمهم دائما الألذ والأجمل والاغلى ، ومتى انتهت

فيهم اللذة منتهاها ولم تجد عاطفتهم من اللذات الجديدة ما يسعدها ، ضاقت بهم فظهرت مظهر الذى يحاول أن ينتحر ، وذلك هو الملل الذي يبتلون به ، والفاسق الغنى حين يمل من لذاته ، يصبح شأنه مع نفسه كالذى يكون فى نفق تحت الأرض ويريد هناك سماء وجوا يطير فيهما بالطيارة ...

. . . .

قالوا : واعترض ابن الأمير ذات يوم شحاذ مريض قد أسن وعجز يتحامل بعضه على بعض ، فسأله أن يحسن اليه ، وذكر عوزه واختلاله ، وجعل يبثه من دموعه والفاظه ، وكان ابليس فى تلك الساعة قد صرف خواطر الشاب الى احدى الغانيات المتنعمات عليه ، وقد ابتاع لها حيلة ثمينة اشتط بائعها فى الثمن حتى بلغ به عشرة الاف دينار ، فهو يريد أن يهديها اليها كأنها قدر من قادر .. وقطع عليه الشحاذ المسكين أفكاره المضيئة فى الشخص المضيء ، فكان اهانة لخياله السامى .. ووجد فى نفسه غضاضة من رؤية وجهه ، واشمأز فى عروقه دم الامارة ، وتحركت الوراثة الحربية فى هذا الدم .

ثم ألقى الشيطان القاءه عليه ، فاذا هو يرى صاحب الوجه القذر كأنما يتهكم به يقول له : أنت أمير يبحث الناس عن الأمير الذى فيه فلا يجدون الا الشيطان الذى فيه . وليس فيك من الامارة الا مثل ما يكون من التاريخ فى الموضع الأثرى الخرب . ولن تكون أميرا بشهادة عشرة آلاف دينار عند مومس ، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة الاف فقير . أنت أمير ، فهل تثبت الحياة أنك أمير ، أو هذا معنى فى كلمة من اللغة ؟ ان كانت الحياة فأين أعمالك ، وان اللغة فهذه لفظة بائدة تدل فى عصور

الانحطاط على قسط حامليها من الأستبداد والطغيان والجبروت، كأن الاستبداد بالشعب غنيمة يتناهبها عظماؤه ، فقسم مناقى الحاكم ، وقسم فى شبه الحاكم يترجم عنه فى اللغة بلقب أمير ٠

ألا قل للناس أيها الأمير : ان لقبى هذا انما هو تعبير الزمن عما كان جدادى من الحق فى قتل الناس وآمتهانهم ٠٠٠ ! ٠

. . . .

وكان هذا كلاما بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير فى حالة بخصوصها من أحوال النفس ، فلا جرم أهين الشحاذ وطرد ومضى يدعو بما يدعو ٠

ونام ابن الأمير تلك الليلة فكانت خيالته (١) من دنيا ضميره وضمير الشحاذ ، فرأى فيما يرى النائم أن ملكا من الملائكة يهتف به :

ويلك ! لقد طردت المسكين تخشى أن تنالك منه جراثيم تمرض بها ، وما علمت أن فى كل سائل فقير جراثيم أخرى تمرض بها النعمة ، فان أكرمته بقيت فيه ، وان أهنته نفضها عليك ٠ لقد هلكت اليوم نعمتك أيها الأمير ، واسترد العارية صاحبها ، وأكلت الحوادث مالك فأصبحت فقيرا محتاجا تروم الكسرة من الخبز فلا تتهيأ لك الا بجهد وعمل ومشقة ، فاذهب فاكدح لعيشك فى هذه الدنيا ، فما لأبيك حق على الله أن تكون عند الله أميرا ٠

---

(١) الخيالة : ما يتراءى النائم من الأشباح فى نومه ٠

قالوا : وينظر ابن الأمير فاذا كل ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال ، واذا الامارة كانت وهما فرضه على الناس قانون العادة ، واذا التعاظم والكبرياء والتجبر ونحوها انما كانت مكراً من المكر لاثبات هذا الظاهر والتعزز به • وينظر ابن الأمير ، فاذا هو بعد ذلك صعلوك أبتر محدم رث الهيئة كذلك الشحاذ ، فيصيح مغتاظا : كيف امتلتنى الأقدار وأنا ابن الأمير ؟ •

قالوا : ويهتف به ذلك الملك : ويحك ! أن الأقدار لا تدلل أحداً ، لا ملكا ولا ابن ملك ، ولا سوقيا ولا ابن سوقى ، ومتى صرتم جميعا الى التراب فليس فى التراب عظم يقول لعظم آخر : أيها الأمير ••••

. . . .

قالوا : وفكر الشاب المسكين فى صواحبه من النساء ، وعندهن شبابه واسرافه ونفقاته الواسعة ، فقال فى نفسه : اذهب لاحداهن ! وأخذ سمته اليها ، فما كادت تعرفه عيناها فى أسماله وبذاذته وفقره حتى أمرت به فجر بيديه ودفع فى قفاه ، ولكن دم الامارة نزا فى وجهه غضبا ، وتحركت فيه الوراثة الحربية ، فصاح وأجلب واجتمع الناس عليه واضطربوا، وماج بعضهم فى بعض ، فبينا هو فى شأنه حانت منه التفاتة ، فابصر غلاما قد دخل فى غمار الناس ، فدس يده فى جيب أحدهم فنشل كيسه ومضى •

قالوا : وجرى فى وهم ان الأمير أن يلحق بالغلام فيكبسه كبسة الشرطى وينتزع منه الكيس وينتفع بما فيه فتسبلل من

الزجام وتبع الصبى حتى أدركه ، ثم كبسه وأخذ الكيس منـــه وأخرج الكنز ، فاذا ليس فيه آلا خاتم وحجاب وبعض خرزات مما يتبرك العامة بحمله ، ومفتاح صغير ٠٠

فامتلأ غيظا ، وفار دم الامارة ، وتحركت الوراثة الحربية التى فيه ، وألم الصبى بما فى نفسه ، وحدس على أنه رجـــل أفاق متبطل ، لانقـــاذ له فى صناعة يرتزق منهـــا ، فرثى لفقـــره وجهله ودعاه الى أن يعلمه السرقة وأن يأخذه الى مدرستها ، وقال : ان لنا مدرسة ، فاذا دخلت القسم الإعدادى منها تعلمت كيف تحمل المكتل (١) فتذهب كأنك تجمع فيه الخرق البالية من الدور ، حتي اذا سنحت لك غفلة انسللت الى دار منها فسرقت ما تناله يدك من ثوب أو متاع ، ولا تزال فى هذا الباب من الصنعة حتى تحكمه ، ومتى حذقته ومهرت فيه انتقلت الى القسم الثانوى ٠٠

فضاح ابن الأمير : اغرب عنى ، عليك وعليك ، أخزاك الله ! ولعن الله الاعدادى والثانوى معا ٠

ثم انه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق ، فبينما هو يمشي وقد توزعته الهمـــوم ، أنشأ يفكر فيمـــا كان يراه من المكدين، وتلك العلل التى ينتحلونها المكدية ، كالذى يتعـــــامي ، والذى يتعارج ، والذي يحدث فى جسمه الآفة ، ولكن دم الامارة اشمأز فى عروقه وتحركت فيه الوراثة الحربية ! ٠

ويصر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة ، فتعرض لمعروفه ، وأفضى اليه بهمه ، وشكا ما نزل به ، ثم قال : وانى

(١) هو كالقفه يعمل من الخوص ٠

قد أملتك وظنى بك أن تصطفينى لمنادمتك أو تلحقنى بخدمتك ، وما أريد الا الكفاف من العيش ، فان لم تبلغ بى ، فالقليل الذى يعيش به المقل · وصعد فيه الشاب وصوب ، ثم قال له : أتحسن أن تلطف فى حاجتى ؟ قال : سأبلغ فى حاجتك ما تحب · قال الشاب : ألك سابقة فى هذا ···· ؟ أكنت قوادا ··· ؟ أتعرف كثيرات منهن ··· ؟ ·

فانتفض غضبا وهم أن يبطش بالفتى ، لولا خوفه عاقبة الجريمة ، فاستخذى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقا ، فأمل أن يجد عملا فى بعض الحوانيت ، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرة ويطردونه مرة ، إذ وقعت به ظنة التلصص ، وكادوا يسلمونه الى الشرطى ، فمضى هاربا وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وامارته وبؤسه جميعا ·

قالوا : ومر فى طريقه الى مصرعه بامرأة تبيع الفجل والبصل والكرات ، وهى بادنة وضيئة ممتلئة الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها مسحة اغراء ، فذكر غزله وفتنته واستغواءه للنساء ، ونازعته النفس ، وحسب المرأة تكون له معاشا ولهوا ، وظنها لا تعجزه وإلا تفوته ، وهو فى هذا الباب خراج ولاج منذ نشأ ···· غير انه ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطمة أظلم لها الجو فى عينيه ، ثم هرت فى وجهه هريرا منكرا ، واستعدت عليه السابلة فأطافوا به وأخذه الصفع بما قدم وما حدث ، وما زالوا يتعاورونه ضربا حتى وقع مغشيا عليه ·

ورأى فى غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب ، فضرب وحبس وابتلى بالجنون وأرسل الى المارستان ، وساح فى مصائب العالم ، وطاف على نكبات الأمراء والسوقة بما يعى

وما لا يعى ، ثم رأى أنه قد أفاق من الاغماء فاذا هو قد استيقظ من نومه على فراشه الوثير .

★●●★

ويا ليت من يدرى بعد هذا ! أغدا ابن الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يحسن اليهم ، أم غدا على صاحبته التى امتنعت عليه فابتاع لها الحيلة بعشرة آلاف دينار ؟.

ياليت من يدرى ! فان الكتاب الذى نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئا ، بل قطع الخبر عندما انقطع الصفع ...

بنت الباشـا ... (*)

كانت هذه المرأة وضاحة الوجه زهراء اللون كالقمر الطالع ، تحسبها لجمالها غذتها الملائكة بنور النهـار ، وروتهـا من ضوء الكواكب .

وكانت بضة مقسمة أبدع التقسيم ، يلتف جسمها شيئا على شيء التفافا هندسيا بديعا ، يرتفع عن أجسام الغيد الحسان أفرغ فيها الجمال بقدر ما يمكن ـ الى أجسام الدمى العبقرية التى أفرغ فيها الجمال والفن بقدر ما يستحيل .

وكانت باسمة أبدا كأول ما يتلألأ الفجر ، حتى كأن دمهـا الغزلي الشاعر يصنع لثغرها ابتسامة كما يصنع لخديها حمرتها .

مالهـا جلست الآن تحت الليل مطرقة كاسفة ذابلة ، تأخذها العين فما تشك أن هذا الوجه قد كان فيه منبع نور وغاض ! وأن هذا الجسم الظمآن المعروق هو بقعة من الحياة أقيم فيها مأتم !

ما لهذه العين الكحيلة تذرى الدمع وتسترسل فى البكاء وتلج فيه ، كأن الغادة المسكينة تبصر بين الدموع طريقـا تفضى منه نفسها الى الحبيب الذى لم يعد فى الدنيا ، الى وحيدها الذى أصبحت تراه ولا تلمسه ، وتكلمه ولا يرد عليها ، الى طفلها الناعم

(*) انظر خبر هذه القصة وحديث (الزبال الفيلسوف) فى « عود على بدو » من كتابنا (حياة الرافعى) .

الظريف الذى انتقل الى القبر ولن يرجع ، وتتمثله أبدا يريد أن يجىء اليها ولا يستطيع ، وتتخيله أبدا يصيح فى القبر يناديها : « يا أمى ! يا أمى ! ... » .

قلبها الحزين يقطع فيها ويمزق فى كل لحظة ! لأنه فى كل لحظة يريد منها أن تضم الطفل الى صدرها . ليستشعره القلب فيفرح ويتهنأ اذ يمس الحياة الصغيرة الخارجة منه . ولكن أين الطفل ؟ أين حياة القلب الخارجة من القلب ؟

لا طاقة للمسكينة أن تجيب قلبها الى ما يطلب ، ولا طاقة لقلبها أن يهدأ عما يطلب ؛ فهو من الغيظ والقهر يحاول أن يفجر صدرها ، ويريد أن يدق ضلوعها ، ليخرج فيبحث بنفسه عن حبيبه !

مسكينة تترنح وتتلوى تحت ضربات مهلكة من قلبها ، وضربات أخرى من خيالها ، وقد باتت من هذه وتلك تعيش فى مثل اللحظة التى تكون فيها الذبيحة تحت السكين ؛ ولكنها لحظة امتدت الى يوم ، ويوم امتد الى شهر . يا ويلها من طول حياة لم تعد فى آلامها وأوجاعها الا طول مدة الذبح للمذبوح .

ولو كان للموت قطار يقف على محطة فى الدنيـا ، ليحمل الأحباب الى الأحباب ، ويسافر من وجود الى وجود ، وكانت هذه الأم جالسة فى تلك المحطة منتظرة تتربص ، وقد ذهلت عن كل شىء ، وتجردت من كل معانى الحياة ، وجمدت جمود الانتقال الى الموت ـ لما كانت الا بهذه الهيئة فى مجلسها الآن فى شرفتها من قصرها ؛ تطل على الليل المظلم وعلى أحزانها ... !



هى فلانة بنت فلان باشا وزوجة فلان بك · ترادفت النعم على أبيها فيما يطلب وما لا يطلب ، وكأنما فرغ من اقتراحه علـى الزمان ، واكتفى من المال والجـاه فلم يعجب الزمان ذلك ، فأخـذ يقترح له ويصنع ما يقترح ، ويزيده على رغمه نعما تتوالى !

وكان قد تقدم الى خطبة ابنته شاب مهذب ، يملك من نفسـه الشباب والهمة والعلم ، ومن أسـلافه العنـصر الكريم والشرف الموروث ، ومن أخلاقه وشمائله ما يكاثر به الرجال ويفاخر · بيد أنه لا يملك من عيشه الا الكفاف والقلة ، وأملا بعيدا كالفجر وراء ليل لابد من مصابرته الى حين ينبثق النور ·

وتقدم صاحبنا الى الباشا فجاءه كالنجم عاريا ؛ أى فى أزهى نورانيته وأضوئها ؛ وكان قد علق الفتاة وعلقته ، فظن عند نفسه أن الحب هو مال الحب ، وأن الرجولة هى مال الأنوثة ، وأن القلوب تتعامل بالمسرات لا بالأموال ، ونسى أنه يتقدم الى رجل مالى جعلته حقارة الاجتماع رتبة ، أو الى رتبة مالية جعلتها حقارة الاجتماع رجلا ··· وأن كلمة « باشا » وأمثالها ، انما تخلفت عن ذلك المذهب القديم : مذهب الألوهية الكاذبة التى انتحلهـا فرعون وأمثاله ، ليتعبدوا الناس منها بألفاظ قلوبهم المؤمنة ! فاذا قيل « اله » كان جواب القلب : « عز وجل » ، « سبحانه » ···

ولما ارتقى النـاس عن عبادة الناس ، تلطفت تلك الألوهية ونزلت الى درجات انسانية ، لتتعبد الناس بألفاظ عقولهم الساذجة ! فان قيل « باشا » كان جواب العقـل الصـغير : « سعـادتلو افندم (١) » !

---

(١) هذه القاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة ، فأفسدت الناس بكبرياء الالفاظ الفارغة وقد ارادت بها رفع الاعلى ، فانتهى أمرها الى سقوط الأعلى والأسفل ·

نسى الشاب أنه « افندى » سيتقدم الى « باشا » ، وأعماه الحب عن فرق بينهما ؛ وكان سامى النفس ، فلم يدرك أن صغائر الأمم الصغيرة لابد لها أن تنتحل السمو انتحالا ، وأن الشعب الذى لا يجد أعمالا كبيرة يتمجد بها ، هو الذى تخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلهى بها ؛ وأنه متى ضعف ادراك الأمة ، لم يكن التفاوت بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها ، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ ؛ فان قيل « باشا » فهذه الكلمة هى الاختراع الاجتماعى العظيم فى أمم الألفاظ ، ومعناها العلمى : قوة ألف فدان أو اكثر أو أقل ؛

ويقابلها مثلا فى أمم الأعمال الكبيرة لفظ « الآلة البخارية » ، ومعناها العلمى قوة كذا وكذا حصانا أو أقل أو أكثر (١) !

نسى هذا الشاب أن « أمم الأكل والشرب » فى هذا الشرق المسكين ، لا تتم عظمتها الا بأن تضع لأصحاب المال الكثير ألقابا هى فى الواقع أوصاف اجتماعية للمعدة التى تأكل الأكثر والأطيب والألذ ، وتملك أسباب القدرة على الألذ والأطيب والأكثر .

وتقدم (الأفندى) يتودد الى (الباشا) ما استطاع ، ويتواضع وينكمش ، ولا يألوه تمجيدا وتعظيما ؛ ولكن أين هو من الحقيقة ؟ انه لم يكن عند الباشا الا أحمق ؛ اذ لم يعرف أنه تقدمه

---

(١) انظر مقالة (البك والباشا) فى الجزء الثانى .

الى ذلك العظيم كان أول معانيه أن كلمة « أفندى » تطاولت الى كلمة « باشا » بالسب علنا ... !

★★★

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه اعراضا كان معناه الطرد ؛ ثم جاء (البك) يخطب الفتاة .

و « بك » منبهة للاسم الخاطب ، وشرف وقدو وثناء اجتماعى وذكر شهير ، وارغام على التعظيم بقوة الكلمة ، ودليل على الجرمات اللازمة للاسم لزوم السواد للعين ، ولم يكن تحت (بك) رجل ، فان تحتها على كل حال (بك) ... ! وأنعم له الباشا ، ووصل يده بيد ابنته ، فألبسها وألبسته ، وعلمها ابوها أنه قد فحص عن البك ، فاذا هو (بك) قوة مائتى فدان ... ! أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسى الاجتماعى أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيها فى الشهر ... !

وخنس الأفندى وتراجع منخزلا ، وقد علم أن (الباشا) انما زوج لقبه قبل أن يزوج ابنته ، وأنه هو لن يملك مهر هذا اللقب الا اذا ملك أن يبذل أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة ، فينقل الى العقل أو النفس ما جعلته « امم الأكل والشرب » من حق المعدة ، فلا يكون (باشا) الا مخترع شرقى مفلس أو اديب عظيم فقير . أو من جرى هذا المجرى فى سمو المعنى لا فى سمو المال ؟

وقدمت مائتا الفدن مهرها « الطينى » العظيم بما تعبيره فى اللغة الطينية : ثمن عشرين نورا ، ومثلها جاموسا ، ومثلها بغالا وأحمرة ، وفوقها مائة قنطار قطنا ، ومائة أردب قمحا ، ثم ذرة ثم شعيرا . والمجموع الطينى لذلك الف جنيه ؛ وعزى الباشا أنه

مستطيع أن يقول للناس خمسة آلاف اختزلتها الأزمـة قبحهـا الله ··· !

ثم زفت « بنت الباشا » زفافا طينيا بهذا المعنى أيضـا ، كان تعبيره : أنه أنفق عليه ثمن ألف قنطار بصلا ، ومائة غرارة من السماد الكيماوى ، كأنما فرش بها الطريق ··· !

وطفق الباشا يفاخر ويمتدح ويتبذخ على الأفندى وأمثـال الأفندي بالطين ومعانى الطين ؛ فردت الأقدار كلامه عليه ، وجعلت مرجعه فى قلبه ، وهيأت لبنت الباشا معيشة « طينية » بمعنى غير ذلك المعنى ···

★★★

ومات الطفل : فردت هذه النكبة بنت البـاشا الى معـانى انفرادها بنفسها قبل الزواج ، وزادتها على انفرادها الحزن والألم ، وألقت الأقدار بذلك فى أيامها ولياليها التراب والطين ·

ولج الحزن ببنت البـاشا فجعلت لا ترى الا القبر ولا تتمنى الا القبر تلحق فيه بولدها ، فوضعت الأقدار من ذلك فى روحها معنى الطين والتراب ·

وأسقم الهم بنت الباشا وأذابها ، فنقلت الأقدار الى لحمها عمل الطين فى تحليله الأجسام وذابتها تحت البلى ·

★★★

وكان وراء قصرها حواء (١) يأوى اليه قوم من « طين الناس » بنسائهم وعيالهم ، وفيهم رجل « زبال » له ثلاثة أولاد ، يراهم أعظم

(١) الحواء : جماعة من البيوت كهذه العشش التى يسكنها الصعايدة فى بعض الأحياء ·

مفاخره وأجمل آثاره ، ولا يزال يرفع صوته متمدحا بهم ، ويخترع لذلك أسبابا كثيرة لكي يسمعه جيرانه كل ليلة مفاخرا ، مرة بأحمد ، ومرة بحسن ، ومرة بعلى ؛ وأعجب أمره أنه يرى أولاده هؤلاء متمتعين في الطبيعة لأولاد « الباشوات » ... وهو يحبهم حب الحيوان المفترس لصغاره : يرى الأسد أشـبالـه هم صنعة قوته ، فلا يزال يحوطهم ويتممهم ويرعاهم ، حتى أنه ليقاتل الوجود من أجلهم ؛ اذ يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجودهم ، وأن الطبيعة وهبت له منهم مسرات قلبه ، ذلك القلب الذى انحصرت مسراته فى النسل وحده ، فصـــار الشعور بالنسل عنده هو الحب الى نهاية الحب . وكذلك الزبال الأسد (١) .

ومن سخرية القدر أن زبالنا هذا لم يسكن الحواء الا فى تلك الليلة التى جلست فيها بنت الباشا على ما وصفنا ، وفى ضلوعها قلب يفتت من كبدها ويمزق من أحشائها .

وبينا تناجى نفسها وتعجب من سخرية الأقدار بالباشا والبك ، وتستحمق أباها فيما أقدم عليه من نبذ كفها لعجزه عن مهر باشا ، وايثار هذا المهر الطينى ، وتباهيه به أمام الناس ، واندرائه بالطعن على من ليس له لقب من ألقاب الطين ــ بيناهى كذلك اذا بالزبال ، كانس التراب والطين ، يهتف فى جوف الليل ويتغنى :

---

(١) هذا الزبال شخصية حقيقية ، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان « ارسطو » رجع زبالا ليتمم فلسفته والكاتب يعرف الرجل وكان (حضرته) قد طلب الينـا ان نضع له (موال) يتغنى به فى (أوقات الصفاء) فوضعنا له الأغنية التى يراها القارىء بعد وهو يصدح بها فى لياليه . وسنفرد لزبالنا هذا مقالا خاصا ان شاء الله !!

ياليل ، ياليل ، ياليل   ما تتجــلى يا ليــل

★★★

القـــلب اهـو راضى   لك حمــــدى يا ربى
من الهــــموم قاضى   افــــرح لى يا قـلبى

★★★

يا دوب كـدا يـا دوب   زى الحمــــام عايش
ما يمـــتلك غــير توب   طول عمره فيه نافش ...
ياليل ، ياليل ، ياليل   ما تنجــلى يا ليــل

★★★

ان قلت أنا فرحـــان   دا مــــين يـكدبنى
واكـتر من الســلطان   فرحـــان أنـا ببـابنى

★★★

بين الســيوف يا ناس   لم انكسر ســــيفى
وابن الغنى محتــاس   وانـا على كـــيفى
ياليل ، ياليل ، ياليل   ما تنجــلى يا ليــل

★★★

وابن الغـنى ف هـموم والخـــالى خالى البال
والفقـــر ما بيـــدوم وتدوم همـــوم المـال
يا طير ، يا طير ، يا طير الحـــــر فـوق اللوم

★★★

والخـير ، جميع الخير لقمة ، وعافيـة ، ونوم
ياليل ، ياليل ، ياليل ما تنجـــلى يا ليـــل

★★★

ولم تختر الأقدار الا زبالا ترسل فى لسانه سخريتها بذلك الباشا وبنت ذلك الباشا ... !

وكـسر قلب بكـسر قلب وحطم نفس بحطم نفس
ورب عـز تراه أمـسى كناسة هيئت لكنس ...!

---

* قلت : وانظر حديثنا عن هذا الزبال فى « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعى » .

ورقة ورد (★)

« وضعنا كتابنا « أوراق الورد » فى نوع من الترسل لم يكن منه شيء فى الأدب العربى على الطريقة التى كتبناها بها فى المعانى التى أفردناه لها ، وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه فى مقدمة الكتاب · وكانت قد ضاعت « ورقة ورد » وهى رسالة كتبها ذلك العاشق الى صديق له ، يصف من أمره وأمر صاحبته ، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه ، وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب ، فرأينا ألا ننفرد بها · وهى هذه : »

··· كانت لها نفس شاعرة ، من هذه النفوس العجيبة التى تأخذ الضدين بمعنى واحد أحيانا ؛ فيسرها مرة أن تحزنها وتستدعى غضبها ، ويحزنها مرة أن تسرها وتبلغ رضاها ؛ كأن ليس فى السرور ولا فى الحزن معان من الأشياء ، ولكن من نفسها ومشيئتها ·

وكان خيالها مشبوبا ، يلقى فى كل شيء لمعان النور وانطفاءه ، فالدنيا فى خيالها كالسماء التى ألبسها الليل ، ملئت بأشيائها مبعثرة مضيئة خافتة كالنجوم ·

(★) انظر سبب انشاء هذا الفصل فى « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعى » ·

ولها شعور دقيق ، يجعلها أحيانا من بلاغة حسها وارهافه كان فيها أكثر من عقلها ، ويجعلها فى بعض الأحيان من دقة هذا الحس وآهتياجه كأنها بغير عقل ...

وهى ترى أسمى الفكر فى بعض أحوالها ألا يكون لهـا فكر ، فنترك من أمورها أشياء للمصادفة ، كأنها واثقة أن الحظ بعض عشاقها ؛ على أن لها ثلاثة أنواع من الذكاء ، فى عقلها وروحها وجسمها ؛ فالذكاء في عقلها فهم ، وفى روحها فتنة ، وفى جسمها ... خلاعة .

وكنت أراها مرحة مستطارة مما تطـرب وتتفـاءل ، حتى لأحسبها تود أن يخرج الكون من قوانينه ويطيش ... ؛ ثم أراها بعد متضورة مهمومة تحزن وتتشاءم ، حتى لأظنها ستزيد الكون هما ليس فيه !

وكانت على كل أحوالها المتنافرة ـ جميلة ظريفـة ، قد تمت لها الصورة التى تخلق الحب ، والأسرار التى تبعث الفتنة ، والسحر الذى يميز روحها بشخصيتها الفاتنة كمـا تتميز هى بوجههـا الفـاتن .

★★★

وكان حبى اياها حريقا من الحب ؛ فمثل لعينيك جسـما تناول جلده مس من لهب ، فتسلع هذا الجلد (١) هنا وهناك من سلخ النـار ، وظهر فيه من آثار الحروق لهب يابس أحمر كأنه عروق من الجمر انتشرت فى هذا الجسم ؛ انك ان تمثـلت هـذا الوصف ثم نقلته من الجلد الى الدم ـ كان هو حـريق ذلك الحب فى دمى !

---

(١) أى تشقق وتسلخ .

والحب ان كان حبا لم يكن الا عذابا ؛ فما هو الا تقديم البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التى فى المعشوق ، ليس حال منه فى عذابه ، الا وهى دليل على شىء منها فى جبروتها ·

ولقد أيقنت أن الغرام انما هو جنون شخصية المحب بشخصية محبوبه ، فيسقط العالم وأحكامه ومذاهبه مما بين الشخصيتين ، وينتفى الواقع الذى يجرى الناس عليه · وتعود الحقائق لا تأتى من شىء فى هذه الدنيا الا بعد أن تمر على المحبوب لتجىء منه ، ويصبح هذا الكون العظيم كأنه اطار فى عين مجنون لا يحمل شيئا الا الصورة التى جن بها !

وتالله لكأن قانون الطبيعة يقضى الا تحب المرأة رجلا يسمى رجلا ، وألا تكون جديرة بمحبها ، الا اذا جرت بينهما أهوال من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذة فى الحرب ··· تلك الأهوال يمثلها الحيوان المتوحش عملا جسيما بالقتال على الأنثى ، ثم ترق فى الانسان المتحضر فيمثلها عملا قلبيا بالحب ···

★★★

أحببتها جهد الهوى حتى لا مزيد فيه ولا مطمع فى مزيد ، ولكن أسرار فتنتها استمرت تتعدد فتدفعنى أن يكون حبى أشد من هذا ؛ ولا أعرف كيف يمكن فى الحب أشد من هذا ؟

ولقد كنت فى استغاثتى بها من الحب كالذى رأى نفسه فى طريق السيل ففر الى ربوة عالية فى رأسها عقل لهذا السيل الأحمق ، أو كالذى فاجأه البركان بجنونه وغلظته فهرب فى رفة الماء وحلمه ؛ ولا سيل ولا بركان الا حرقتى بالهوى وارتماضى من الحب ·

أما والله انه ليس العاشق هو العاشق ، ولكن هى الطبيعة ، هى الطبيعة فى العاشق ·

هى الطبيعة ، بجبروتها ، وعسفها ، وتعنتها • اذا استراح الناس جميعا قالت للعاشق : الا أنت •• !

اذا عقل الناس جميعا قالت فى العاشق : الا هذا ••• !

اذا برأت جراح الحياة كلها قالت : الا جرح الحب ••• !

اذا تسابهت الهموم كالدمعة والدمعة ، قالت : الا هم العشق ••• !

اذا تغير الناس فى الحالة بعد الحالة ، قالت فى الحبيب : الا هو ••• !

اذا انكشف سر كل شىء ، قالت : الا المعشوق ، الا هذا المحجب باسرار القلب ••• ؟

★★★

ولما رأيتها أول مرة ، ولمسنى الحب لمسة ساحرة ، جلست اليها أتأملها وأحتسى من جمالها ذلك الضياء المسكر ، الذى تعربد له الروح عربدة كلها وقار ظاهر ••• فرأيتنى يومئذ فى حالة كغشية الوحى ، فوقها الآدمية ساكنة ، وتحتها تيار الملائكة يعبب ويجرى •

وكنت ألقى خواطر كثيرة ، جعلت كل شىء منها ومما حولها يتكلم فى نفسى ، كأن الحياة قد فاضت وازدحمت فى ذلك الموضع الذى تجلس فيه ، فما شىء يمر به الا مسته فجعلته حيا يرتعش ، حتى الكلمات •

وشعرت أول ما شعرت أن الهواء الذى تتنفس فيه يرق رقة نسيم السحر ، كأنما انخدع فيها فحسب وجهها نور الفجر !

وأحسست فى المكان قوة عجيبة فى قدرتها على الجذب . جعلتنى مبعثرا حول هذه الفتانة ، كأنها محدودة بى من كل جهة .

وخيل الى أن النواميس الطبيعية قد أختلت فى جسمى اما بزيادة واما بنقص ؛ فأنها لذلك أعظم أمامها مرة ، وأصغر مرة .

وظننت أن هذه الجميلة ان هى الا صورة من الوجود النسائى الشاذ ، وقع فيها تنقيح الهى لتظهر كيف كان جمال حواء فى الجنة .

ورأيت هذا الحسن الفاتن يشعرنى بأنه فوق الحسن ، لأنه فيها هى ، وأنه فوق الجمال والنضرة والمرح ، لأن الله وضعه فى هذا السرور الحى المخلوق امرأة .

والتمست فى محاسنها عيبا ، فبعد الجهد قلت مع الشاعر :

« اذا عبتها شبهتها البدر طالعا ... ! »

★★★

ورأيتها تضحك الضحك المستحى ؛ فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعر أنه تجرأ على قانون ...

وتبسم ابتسامات تقول كل منها للجالسين : انظروها ! أنظروها ... !

ويغمرها ضحك العين والوجه والفم ، وضحك الجسم أيضا باهتزازه وترجرجه فى حركات ، كأنما يبسم بعضها ويقهقه بعضها ...

وتلقى نظرات جعل الله معها ذلك الاغضاء وذلك الحياء ، ليضع شيئا من الوقاية فى هــذه القوة النســوية ، قوة تــدمير القلب ٠

وهى على ذلك متسامية فى جمالها ، حتى لا يتكلم جسمها فى وساوس النفس كلام اللحم والدم ، وكأنه جسم ملائكى ليس له الا الجلال طوعا أو كرها ، جسم كالمعبد ، لا يعـرف من جاءه أنه جاءه الا ليبتهل ويخشع ٠

وتطالعك من حيث تأملت فكرة الحياة المنسجمة على هذا الجسم ، تطلب منك الفهم وهى لا تفهم أبدا ؛ أى تريد الفهم الذى لا ينتهى ؛ أى تطلب الحب الذى لا ينقطع ٠

وهى أبدا فى زينة حسنا كأنها عروس فى معرض جلوتها ؛ غير أن للعورس ساعة ، ولها هى كل ساعة ٠

أما ظرفها فيكاد يصيح تحت النظرات : أنا خائف ! أنا خائف !

ووجهها تتغالب عليه الرزانة والخفة ، لتقرأ فيه العين عقلها وقلبها ٠

وهى مثل الشعر : تطرب القلب بالألم الذى يوجد فى بعض السرور ، وبالسرور الذى يحس فى بعض الألم ٠

وهى مثل الخمر : تحسب الشيطان مترقرقا فيها بكل اغرائه !

وكلما تناولت أمامى شيئا أو صنعت شيئا خلقت معه شيئا ؛ أشياؤها لا تزيد بها الطبيعة ، ولكن تزيد بها النفس .

فيا كبدا طارت صدوعا من الأسى ... !

★★★

ورأيتنى يومئذ فى حالة كغشية الوحى ، فوقها الآدمية ساكنة ، وتحتها تيار الملائكة يعب ويجرى .

يا سحر الحب ! تركتنى أرى وجها من بعد هو الوجه الذى تضحك به الدنيـا ، وتعبس وتتغيظ وتتحامق أيضا ...

وجعلتنى أرى تلك الابتسامة الجميلة هى أقوى حكومة فى الأرض ... !

وجعلتنى يا سحر الحب ... وجعـلتنى يا سـحر الحب مجنونا ... !

سمو الحب (★)

صاح المنادى فى موسم الحج : « لا يفتى الناس الا عطاء بن ابى رباح » (١) وكذلك كان يفعل خلفاء بنى أمية : يأمرون صائحهم فى الموسم أن يدل الناس على مفتى مكة وامامها وعالمها ، ليلقوه بمسائلهم فى الدين ، ثم ليمسك غيره عن الفتوى ؛ اذ هو الحجة القاطعة لا ينبغى أن يكون معها غيرها مما يختلف عليها أو يعارضها ، وليس للحجج الا أن تظاهرها وتترادف على معناها .

وجلس عطاء يتحين الصلاة فى المسجد الحرام ، فوقف عليه رجل وقال : يا أبا محمد ، أنت أفتيت كما قال الشاعر :

سل المفتى المكى : هل فى تزاور ... وضمه مشتاق الفؤاد جناح ؟

فقال ؛ معاذ الله أن يذهب التقى ... تلاصق أكباد بهن جراح

فرفع الشيخ رأسه وقال : والله ما قلت شيئا من هذا ، ولكن الشاعر هو نحلنى هذا الرأى الذى نفثه الشيطان على لسانه ، وانى لأخاف أن تشيع القالة فى الناس ، فاذا كان غد وجلست فى حلقتى فاغد على ، فانى قائل شيئا :

(★) انظر « عود على بدء » من كتابنا (حياة الرافعى) .

(١) ولد هذا الامام سنة ٢٧ هـ وتوفى سنة ١١٥ قالوا : ومات يوم مات وهو عنه الناس ارضى أهل الدنيا .

وذهب الخبر يؤج كما تؤج النار ، وتعـالم الناس أن عطاء سيتكلم فى الحب ، وعجبوا كيف يدرى الحب أو يحسن أن يقول فيه من غبر عشرين سنة فراشه المسجد ، وقد سـمع من عائشة أم المؤمنين ، وأبى هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عباس ، بحر العلم !

وقال جماعة منهم : هذا رجل صامت أكثر وقته ، وما يتكلم الا خيل الى الناس أنه يؤيد بمثل الوحى ، فكأنما هو نجى ملائكة يسمع ويقول ، فلعل السماء موحية الى الأرض بلسانه وحيا فى هذه الضلالة التى عمت الناس وفتنتهم بالنساء والغناء .

ولما كان غد جاء الناس أرسالا الى المسجد ، حتى اجتمع منهم الجمع الكثير .

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمار : وكنت رجلا شابا من فتيان المدينة ، وفى نفسى من الدنيا ومن هوى الشباب ، فغدوت مع الناس ، وجئت وقد تكلم أبو محمد وأفاض ، ولم أكن رأيته من قبل ، فنظرت اليه فاذا هو فى مجلسه كأنه غراب أسود ، اذ كان ابن امه سوداء تسمى « بركة » ورأيته مع سواده أعور أطفس أشل أعرج مفلفل الشعر ، لا يتأمل المرء منه طائلا ، ولكنك تسمعه يتكلم فتظن منه ومن سوداه — والله — أن هذه قطعة ليل تسطع فيها النجوم ، وتصعد من حولها الملائكة وتنزل .

قال : وكان مجلسه فى قصة يوسف عليه السلام ، ووافقته وهو يتكلم فى تأويل قوله تعالى : (*) « وراودته التى هو فى بيتها

(★) انظر (كيف كان يكتب) من كتابنا (حياة الرافعى) .

عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله ، انه ربى أحسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون • ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ؛ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ••• » •

قال عبد الرحمن : فسمعت كلاما قدسيا تضع له الملائكة أجنحتها من رضى واعجاب بفقيه الحجاز • حفظت منه قوله :

عجبا للحب ! هذه ملكة تعشق فتاها الذى ابتاعه زوجها بثمن بخس ؛ ولكن ابن ملكها وسطوة ملكها فى تصوير الآية الكريمة ؟ لم تزد الآية على أن قالت : « وراودته التى ••• » و « التى » هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت ؛ فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة ؛ وزالت الملكة من الأنثى !

وأعجب من هذا كلمة « راودته » وهى بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير الى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها ، لون بعد لون ، ذاهبة الى فن راجعة من فن ؛ لأن الكلمة مأخوذة من رودان الابل فى مشيتها ، تذهب وتجىء فى رفق • وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة ، واضطرابها فى حبها ، ومحاولتها أن تنفذ الى غايتها ؛ كما يصور كبرياء الأنثى اذ تختال وتترفق فى عرض ضعفها الطبيعى ، كأنما الكبرياء شىء آخر غير طبيعتها ، فمهما تتهالك على من تحب ، وجب أن يكون لهذا « الشىء الآخر » مظهر امتناع أو مظهر تحير ، أو مظهر اضطراب ، وان كانت الطبيعة من وراء ذاك مندفعة ماضية مصممة •

ثم قال : « عن نفسه » ليدل على أنها لا تطمع فيه ، ولكن فى طبيعته البشرية ، فهى تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها ،

وكأن الآية مصرحة فى أدب سام كل السمو ، منزه غاية التنزيه ، بما معناه : « ان المرأة بذلت كل ما تستطيع فى اغوائه وتصبيه ، مقبلة عليه ومتدللة ومتبذلة ومنصبة من كل جهـة ، بما فى جسمها وجمالها على طبيعته البشرية وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت أول ما خلعت أمام عينيه ثوب الملك » .

ثم قال : « وغلقت الأبواب » ولم يقل « أغلقت » ، وهذا يشعر أنها لما يئست ورأت منه محاولة الانصراف ، أسرعت فى ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد اقفالا عدة ، وتجرى من باب الى باب ، وتضطرب يدها فى الاغلاق ، كأنما تحـاول سد الأبواب لا اغلاقها فقط .

« وقالت : هيت لك » ومعناها فى هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة الى آخر حدوده ، فانتهت الى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية ، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة ، بل أنوثة حيوانية صرفة ، متكشفة مصرحة ، كما تكون أنثى الحيوان فى أشد اهتياجها وغليانها .

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض ، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها الى أسفلها ؛ فاذا انتهت المرأة الى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شىء تستطيعه أو تعرضه ، بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية المتمكنة فى معانيها ، فقال يوسف : « معاذ الله » ثم قال : « انه ربى أحسن مثواى » ثم قال : « انه لا يفلح الظالمون » : وهذه أسمى طريقة الى تنبيه ضمير المرأة فى المرأة ، اذ كان أساس ضميرها فى كل عصر هو اليقين بالله ، ومعرفة الجميل ، وكراهة الظلم ؛ ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها ،

ولم يفثأ تلك الحدة فان حبها كان قد انحصر فى فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها فى زمن فى رجل ؛ فهى فكرة محتبسة كأنّ كل الأبواب مغلقة عليها أيضا ؛ ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها : وهنا يعود الأدب الالهى السامى الى تعبير المعجزة فيقول : « لقد همت به » كأنما يومىء بهذه العبارة التى أنها ترامت عليه ، وتعلقت به ، والتجأت الى وسيلتها الأخيرة ، وهى لمس الطبيعة بالطبيعة لالقاء الجمرة فى الهشيم ... !

جاءت العاشقة فى قضيتها ببرهان الشيطان الذى يقذفه به فى آخر محاولته ، وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها هى برهان شيطانها ؛ فلولا برهان ربه لكان هم بها ، ولكان رجلا من البشر فى ضعفه الطبيعى .

قال أبو محمد : وهاهنا المعجزة الكبرى ، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفى عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة ، حتى لا يظن به ، ثم هى تريد من ذلك أن يتعلم الرجال ، وخاصة الشبان منهم ، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق شهوات ، حتى فى الحالة التى هى نهاية قدرة الطبيعة ؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مختلية متعرضة متكشفة متهالكة . هنا لا ينبغى أن ييأس الرجل ، فان الوسيلة التى تجعله لا يرى شيئا من هذا ــ هى أن يرى برهان ربه .

وهذا البرهان يؤوله كل انسان بما شاء ، فهو كالمفتاح الذى يوضع فى الأقفل كلها فيفضها كلها ، فاذا مثل الرجل لنفسه فى تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان امام الله يراهما ، وأن أمانى القلب التى تهجس فيه ويظنها خافية ، انما هى صوت عال يسمعه الله ، واذا تذكر أنه سيموت ويقبر ، وفكر فيما يصنع

الثرى فى جسمه هذا ، أو فكر فى مَوقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل ، أو فكر فى أن هذا الاثم الذى يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه فى أخته أو ابنته ــ اذا فكر فى هذا ونحوه رأى برهان ربه يطالعه فجأة ، كما يكون السائر فى الطريق غافلا مندفعا الى هاوية ، ثم ينظر فجأة فيرى برهان عينه : أترونه يتردى فى الهـاوية حينئذ أم يقف دونها وينجو ؟ أحفظوا هذه الكلمة الواحدة التى فيها أكثـر الكـــلام ، وأكثر الموعظة ، وأكثر التربية ، والتى هى كالدرع فى المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان ــ كلمة : « رأى برهان ربه » ٠



قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث الى صاحبه سهيل بن عبد الرحمن : ولزمت الامام بعد ذلك ، وأجمعت أن أتشبه به وأسلك فى طريقه من الزهد والمعرفة ؛ ثم رجعت الى المدينة وقد حفظت الرجل فى نفسى كما أحفظ الكلام ، وجعلت شـــعارى فى كل نزعة من نزعات النفس هذه الكلمة العظيمة : « رأى برهان ربه » ؛ فما ألمت بإثم قط ، ولا دانيت معصية ، ولا رهقنى مطلب من مطالب النفس الى يوم الناس هذا، وأرجوا أن يعصمنى الله فيما بقى ؛ فان هذه الكلمة ليست كلمة ، وانما هى كأمر من السماء تحمله ، تمر به آمنا على كل معاصى الأرض فمـــا يعترضك شىء منها كأن معـك خاتم الملك تجوز به ٠

قال سهيل : فلهذا لقبك أهل المدينة « بالقس ؛ لعبادتك وزهدك وزهدك وعزوفك عن النساء ، وقليل لك ــ والله ــ يا أبا عبد الله ، فلو قالوا : ما هذا بشرا ان هذا الا ملك ، لصدقوا !



قالت سلامة جارية سهيل بن عبد الرحمن ، المغنية ، الحاذقة الظريفة ، الجميلة الفاتنة ، الشاعرة القارئة ، المؤرخة المتحدثة ، التى لم يجتمع فى امرأة مثلها حسن وجهها ، وحسن غنائها ، وحسن شعرها ـ قالت : واشترانى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار (عشرة آلاف جنيه) وكان يقول : ما يقر عينى ما أوتيت من الخلافة حتى أشترى سلامة ؛ ثم قال حين ملكنى : ما شاء بعد من أمر الدنيا فليفتنى ... قالت : فلما عرضت عليه أمرنى أن أغنيه ، وكنت كالمخبولة من حب عبد الرحمن القس ، حبا أراه فالقا كبدى ، آتيا على حشاشتى ؛ فذهب عنى والله كل ما أحفظه من أصوات الغناء ، كما يمسح اللوح مما كتب فيــه ، وأنسيت الخليفة وأنا بين يديه ، ولم أر الا عبد الرحمن ومجلســه منى يوم سألنى أن أغنيه بشعره فى ، وقولى له يومئذ : حبا وكرامة وعزازة لوجهك الجميل ! وتناولت العود وجسسته بقلبى قبل يدى ، وضربت عليه كأنى أضرب لعبد الرحمن ، بيد أرى فيها عقلا يحتال حيلة امرأة عاشقة ، ثم اندفعت أغنى بشعر حبيبى :

ان التى طرقتك بين ركائب ... تمشى بمزهرها وأنت حـرام
لتصيد قلبك ، أو جزءا مودة ... ان الرفيــق له عليـك زمـام
باتت تعللنـــا وتحسب أننـا ... فى ذلك أيقاظا ، ونحن نيام

وغنيته والله غناء والهة ذاهبة العقل كاسفة البـال ، ورددته كما رددته لعبد الرحـمن ، وأنا اذ ذاك بين يديــه كالوردة أول ما تتفتح ، وأنا أنظر اليه وأتبين لصوتى فى مسمعيه صوتا آخر ... وقطعته ذلك التقطيع ، وددته ذلك التمديد ، وصحت فيه صيحة قلبى ونفسى وجوارحى كلها ، كما غنيت عبد الرحمن ، لكيما أؤدى الى قلبه المعنى الذى فى اللفظ والمعنى الذى فى النفس جميعـا ، ولكيما أسكره ـ وهو الزاهد العابد ـ سكر الخمر بشىء غير الخمر !.

وما أفقت من هذه الغشية الا حين قطعت الصوت ، فاذا الخليفة كأنما يسمع من قلبي لا من فمي وقد زلزله الطرب ، وما خفي على انه رجل قد ألم بشأن امرأة ، وخشيت أن أكون قد افتضحت عنده ؛ ولكن غلبته شهوته ، وكان جسدا بما فيه يريد جسدا لما فيه ؛ فمن لم ينكر ولم يتغير .

واشترانى وصرت اليه ، فلما خلونا سألنى أن أغنى ، فلم أشعر الا وأنا اغنيه بشعر عبد الرحمن :

الا قل لهذا القلب : هل أنت مصر   وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر

اذا أخذت في الصوت كاد جليسها   يطير اليهـــا قلبــه حين تنظر

واديته على ما كان يستحسنه عبد الرحمن ويطرب له ، لا يسمع فيه همسا من بكائي ، ولهفــة مما اجـد به وحسرته على انه يتسكب فى قلبى وهو يصه عنى ويتحامانى ، وما غنيت : « وهل انت عن سلامة اليوم مقصر » الا فى صوت تنوح به ســلامة على نفسها وتندب وتتفجع !

فقال لى يزيد وقد فضحت نفسى عنده فضــيحة مكشــوفة ، يا حبيبتى ، من قائل هذا الشعر ؟

قلت : احدثك بالقصة يا أمير المؤمنين ؟

قال : حـــديثينى .

قلت : هو عبد الرحمن بن ابى عمار الــذى يلقبــونه بالقس لعبادته ونسكه وهو فى المدينة يشبه عطاء بن ابى رباح ، وكان

صديقا لمولاى سهيل ، فمر بدارنا يوما وأنا أغنى ، فوقف يسمع ، ودخل علينا « الأحوص » (١) ، فقال ويحكم ! لكأن الملائكة والله تتلو مزاميرها بحلق سلامة ، فهذا عبد الرحمن القس قد شغل بما يسمع منها • وهو واقف خارج الدار • فتسارع مولاع فخرج اليه ودعاه الى أن يدخل فيسمع منى ، فأبى ! فقال له : أما علمت أن عبد الله بن جعفر ، وهو من هو فى محله وبيته وعلمه ، قد مشى الى جميلة استاذة سلامة حين علم انها آلت الا تغنى أحدا الا فى منزلها ، فجاءها فسمع منها وقد هيأت له مجلسها ، وجعلت على رءوس جواريها شعورا مسدلة كالعناقيد ، والبستهن انواع الثياب المصبغة ، ووضعت فوق الشعور التيجان ، وزينتهن بانواع الحلى ، وقامت هى على رأسه ، وقام الجوارى صفين بين يديه ، حتى اقسم عليها فجلست غير بعيد ، وأمرت الجوارى فجلسن ومع كل جارية عودها ، ثم ضربن جميعا وغنت عليهن ، وغنى الجوارى على غنائها ، فقال عبد الله : ما ظننت أن مثل هذا يكون ! •••

••• وأنا أقعدك فى مكان تسمع من سلامة ولا تراها ، ان كنت عند نفسك بالمنزلة التى لم يبلغها عبد الله بن جعفر !

قالت سلامة : وكانت هذه والله يا أمير المؤمنين – رقية من رقى ابليس ؛ فقال عبد الرحمن : أما هذا فنعم • ودخل الدار وجلس حيث يسمع ، ثم أمرنى مولاى فخرجت اليه خروج القمر مشبوبا من سحابة كانت تغطيه ؛ فاما هو فما رآنى حتى علقت بقلبه ، وسبح طويلا طويلا ؛ واما انا فما رأيته حتى الجنة والملائكة ، ومت عن الدنيا وانتقلت اليه وحده •••

---

(١) هو الأحوص الشاعر المعروف •

قالت سلامة : وافتضحت مرة أخرى : فتنحنح يزيد ... فضحكت وقلت : يا أمير المؤمنين ، أحدثك أم حسبك ؟ قال : حدثيني ويحك ! فوالله لو كنت في الجنة كما أنت لأعدت قصة آدم مع واحد واحد من أهلها حتى يطردوا جميعا من حسنها الى حسنك ! فما فعل القس ويحك ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، انه يدعى القس قبل أن يهواني .

فقال يزيد : وهل عجب وقد فتنته أن يطرده « البطريق » ؟

قلت : بل العجب وقد فتنته أن يصير هى البطريق ... !

فضحك يزيد وقال : ايه ، ما أحسب الرجل الا قد دهى منك بداهية ! فحدثيني فقد رفعت الغيرة ؛ انى والله ما أرى هذا الرجل في أمره وأمرك الا كالفحل من الابل قد ترك من الركوب والعمل ، ونعم وسمن للفحلة ؛ فند يوما ، فذهب على وجهه ، فأقحم فى مفازة ، وأصاب مرتعا فتوحش واستأسد ، وتبين عليه أثر وخشيتي ، وأقبل اقبال الجن من قوة ونشاط وبأس شديد ؛ فلما طال انفراده وتأبده عرضت له فى البر ناقة كانت قد ندت من عطنها ، وكانت فارهة قد انتهت سمنا ، وغطاها الشحم واللحم ، فرآها البازل الصئول ، فهاج وصال وهدر ، يخبط بيده ورجله ، ويسمع لجوفه دوى من الغليان ، واذا هى قد ألقت نفسها بين يديه !

أما والله لو جعل الشيطان فى يمينه رجلا فحلا قويا جميلا ، وفى شماله امرأة جميلة عاشقة تهواه ؛ ثم تمطى متدافعا ومد ذراعيه فابتعد ، ثم تراجع متداخلا وضم ذراعيه فالتقيا ؛ لكان هذا شأن ما بينك وبين القس !

قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ ما كان صاحبى فى الرجال خلا ولا خمرا ، وما كان الفحل الا الناقة ... وما أحسب الشيطان

يعرف هذا الرجل وهل كان للشيطان عمل مع رجل يقول : انه أعرف دائما فكرتى ، وهى دائما فكرتى لا تتغير · ذاك رجل أساسه كما يقول : « برهان ربه » ولقد تصنعت له مرة يا أمير المؤمنين ، وتشكلت وتحليت وتبرجت ، وحدثت نفسى منه بكثير ، وقلت انه رجل قد غبر شبابه فى وجود فارغ من المرأة ، ثم وجد المرأة فى وحدى : وغنيته يا أمير المؤمنين غناء جوارحى كلها · وكنت له كأنى حرير ناعم يترجرج وينشر أمامه ويطوى ·· وجلست كالنائمة فى فراشها وقد خلا المجلس وكنت من كل ذلك بين يديه كالفاكهة الناضجة الحلوة تقول لمن يراها : « كلنه ··· ! »

قال يزيد : ويحك ! ويحك ! وبعد هذا ؟

قلت : بعد هذا يا أمير المؤمنين – وهو يهوانى الهوى البرح ، ويعشقنى العشق المضنى – لم ير فى جمالى وفتنتى واستسلامى الا أن الشيطان قد جاء يرشوه بالذهب · بالذهب الذى يتعامل به !

فضحك يزيد وقال : لا والله ، لقد عرض الشيطان منك ذهبه ولؤلؤه وجواهره كلها ؛ فكيف لعمرى لم يفلح ، وهو لو رشانى من هذا كله بدرهم لوجد أمير المؤمنين شاهد زور ··· !

قلت : ولكنى لم أيأس يا أمير المؤمنين ، وقد أردت أن أظهر امرأة فلم أفلح ، وعملت أن أظهر شيطانة فانخذلت ، وجهدت أن يرى طبيعتى فلم يرنى الا بغير طبيعة ، وكلما حاولت أن أنزل به عن سكينته ووقاره رأيت فى عينيه مال يتغير ، كنور النجم ؛ وكانت بعض نظراته والله كأنها عصا المؤدب ، وكأنه يرى فى جمالى حقيقة من العبادة ، ويرى فى جسمى خرافة الصنم ، فهو مقبل على جميلة ، ولكنه منصرف عنى امرأة ···

ـ ... لم أيأس على كل ذلك يا أمير المؤمنين ، فان أول الحب يطلب آخره أبدا الى أن يموت ، وكان يكثر من زيارتى ، بل كانت الى الغدوة والروحة ، من حبه اياى وتعلقه بى ؛ فواعدته يوما أن يجيء متى وراى الليل أهله لأغنيه : « ألا قل لهذا القلب ... » وكنت لحنته ولم يسمعه بعد ، ولبثت نهارى كله أسترورح فى الهواء رائحة هذا الرجل مما أتلهف عليه ، وأتمثل ظلام الليل كالطريق الممتد الى شيء مخبوء أعلل النفس به ؛ وبلغت ما أقدر عليه فى زينة نفسي واصلاح شأنى وتشكلت في صنوف من الزهر ، وقلت لأجملهن وهى الوردة التى وضعتها بين نهدى : يا أختى ، اجذبى عينيه اليك ، حتى اذا وقف نظره عليك فانزلى به قليلا أو اصعدى به قليلا ...

قال يزيد وهو كالمحموم : ثم ثم ثم ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، ثم جاء مع الليل ، وان المجلس لخال ما فيه غيره وغيره ، بما أكابد منه وما يعانى منى ؛ فغنيته أحر غناء وأشجاه ، وكان العاشق فيه يطرب لصوته ، ثم يطرب الزاهد فيه من أنه استطاع أن يطرب ، كما يطيش الطفل ساعة ينطلق من حبس المؤدب .

وما كان يسوءنى الا أنه يمارس فى الزهد ممارسة ، كأنما أنا صعوبة انسانية فهو يريد أن يغلبها ، وهو يجرب قوى نفسه وطبيعته عليها ؛ أو كأنه يرانى خيال امرأة فى مرآة ، لا امرأة ماثلة له يهواها وشبابها وحسنها وفتنتها ، أو أنا عنده كالصورية من

حور الجنة فى خيال من هى ثرابه : تكون معه وان بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة ؛ فأجمعت أن أحطم المرآة ليرانى أنا نفسى لا خيالى ، واستنجدت كل فتنتى أن تجعله يفر الى كلما حاول أن يفر منى ٠

فلما ظننتنى ملأت عينيه وأذنيه ونفسه ، وأنصببت اليه من كل جوارحه ، وهجت التيار الذى فى دمه ودفعته دفعا ـ قلت له : « أنت يا خليلى شىء لا يعرف ، أنت شىء متلفف بانسان ! ومن التى تعشق ثوب رجل ليس فيه لابسه ؟

ورأيته والله يطوف عند ذلك بفكره ، كما أطوف أنا بفكرى حول المعنى الذى أردته ٠ فملت اليه وقلت (١) : « أنا والله أحبك » ٠

فقال : « وأنا والله الذى لا اله الا هو ٠٠٠ »

قلت : « وأشتهى أن أعانقك وأقبلك ! » ٠

قال : « وأنا والله ! »

قلت : « فما يمنعك ؟ فوالله ان الموضع لخال ! » ٠

قال : يمنعنى قول الله عز وجل : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » فأكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة ! ٠

---

(١) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب الاغانى ـ الى قوله ٠

انى ارى « برهان ربى » يا حبيبتى ، وهو يمنعنى أن أكون من من سيئاتك وأن تكونى من سيئاتى ، ولو احببت الأنثى لوجدتك فى كل أنثى ، ولكنى احب ما فيك أنت بخاصتك ، وهو الذى لا أعرفه ولا أنت تعرفينه ، هو معناك يا سلامة لا شخصك ·

ثم قام وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك يا أمير المؤمنين ، ما عاد بعد ذلك ! وترك لى ندامتى وكلام دموعه ، وليتنى لم افعل ، ليتنى لم افعل ! فقد رأى أن المرأة ـ فى بعض حالاتها ـ تكشف وجهها للرجل ، وكأنها لم تلق حجابها بل ألقت ثيابها ···

قصة زواج

وفلسفة المهر

قال رسول عبد الملك : ويحك يا أبا محمد ! لكأن دمك والله من عدوك ، فهو يفور بك لتلج فى العناد فتقتل ، وكأنى بك والله بين سبعين قد فغرا عليك ، هذا عن يمينك وهذا عن يسارك ، ما تفر من حتف الا الى حتف ،ولا ترحمك الأنياب الا بمخالبيها ·

مهنا هشام بن اسماعيل عامل أمير المؤمنين ، ان دخلته الرحمة لك استوثق منك فى الحديد ، ورمى بك الى دمشق ، وهناك أمير المؤمنين ، وما هو والله الا أن يطعم لحمك السيف يعض بك عض الحية فى أنيابها السم ! وكأنى بهذا الجنب مصروعا لمضجعه، وبهذا الوجه مضرجا بدمائه ، وبهذه اللحية معفرة بترابها ، وبهذا الراس محتزا فى يد « أبى الزعيزعة » جلاد أمير المؤمنين ، يلقيه من سيفه رمى الغصن بالثمرة قد ثقلت عليه ·

وأنت يا سعيد فقيه أهل المدينة وعالمها وزاهدها ، وقد علم أمير المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه : « لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسره » ، فان لم تكرم عليك نفسك فليكرم على نفسك المسلمون ، انك ان هلكت رجع الفقه فى جميع

(★) انظر « قصص الرافعى : عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعى » ·

الأمصار الى الموالى ، ففقيه مكة عطاء ، وفقيه اليمن طاووس ، وفقيه اليمامة يحيى بن أبى كثير ، وفقيه البصرة الحسن ، وفقيه الكوفة ابراهيم النخعى ، وفقيه الشام مكحول ، وفقيه خراسان عطاء الخراسانى ، وانما يتحدث الناس أن المدينة من دور الأمصار قد حرسها الله بفقيهها القرشى العربى « أبى محمد بن المسيب » كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علم أهل الأرض أنك حججت نيفا وثلاثين حجة ، وما فاتتك التكبيرة الأولى فى المسجد منذ أربعين سنة ، وما قمت الا فى موضعك من الصف الأول ، فلم تنظر قط الى قفا رجل فى الصلاة ، ولا وجد الشيطان ما يعرض لك من قبله فى صلاتك ولا قفا رجل ، فالله الله يا أبا محمد ، انى والله ما أغشك فى النصيحة ، ولا أخدعك عن الرأى ، ولا أنظر لك الا خير ما أنظر لنفسى ، وان عبد الملك بن مروان من علمت : رجل قد عم الناس ترغيبه وترهيبه ، فهو آخذك على ما تكره ان لم تأخذه أنت على ما يحب : وانه والله يا أبا محمد ، ما طلب اليك أمير المؤمنين الا وأنت عنده الأعلى ، ولا بعثنى اليك الا وكأنه يسعى بين يديك ، رعاية لمنزلتك عنده ، واكبارا لحقك عليه ، وما أرسلنى أخطب اليك ابنتك لولى عهده، وان يكن الله قد أغناك أن تنتفع به ويملكه ورعا وزهادة، آصرته ، وان يكن الله قد أغناك أن تنتفع به ويملكه ورعا وزهادة، فما أحوج أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينتفعوا بك عنده ، وأن يكونوا أصهار « الوليد » فيستدفعوا شرا ما به عنهم غنى ، ويجتلبوا خيرا ما بهم غنى عنه ، ولست تدرى ما يكون من مصادر الأمور ومواردها ، وانك والله ان لججت فى عنادك وأصررت أن تردنى اليه خائبا ، لتهيجن قرم سيوف الشام الى هذه اللحوم ، ولحمك يومئذ من أطيبها ، ولأمير المؤمنين تارتان : لين وشدة ، وأنا اليك رسول الأولى ، فلا تجعلنى رسول الثانية ...



وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكأن الكلام لا يخلص الى نفسه الا بعد أن تتساقط معـــانيه فى الأرض ، هيبة منه وفرقا من اقدامه عليه و،د لان رسول عبد الملك فى دهائه حتى ظـن عنـــد نفسه أنه ساغ من الرجل مساغ الماء العذب فى الحلق الظـامىء ، واشتد فى وعيده حتى ما يشك أنه قد سقاه ماء حميما فقطع أمعاءه، والرجل فى كل ذلك من سوقه كالسماء فوق الأرض : لو تحـول الناس جميعا كناسين يثيرون من غبار هذه على تلك ، لما كان مرجع الغبار الا عليهم ، وبقيت السماء ضاحكة صافية تتلألأ ٠

وقلب الرسول نظره فى وجه الشيخ ، فاذا هو هو ، وليس فيه معنى رغبـة ولا رهبة ، كأن لم يجعل له الأرض ذهبا تحت قدميه فى حالة ، ولم يملأ الجو سيوفا على رأسه فى الحالة الأخرى ، وأيقن أنه من الشيخ العظيم ، كالصبى الغر قـــد رأى الطـــائر فى أعلى الشجرة فطمع فيه ، فجاء من تحتها يناديه : ان انزل الى حتى آخذك والعب بك ٠٠

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال :

يا هذا ، أما أنا فقد سمعت ، وأما أنت فقد رأيت ، وقد روينا أن هذه الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضه ، فانظر ماجئتنى أنت به ، وقسه الى هذه الدنيا كلها ، فكم ـ رحمه الله ـ تكون قد قسمت الفا لآخذها ، فقلت : لا حاجة لى فيها ولا فى بنى مروان ، حتى ألقى لى من جناح البعوضة ٠٠٠ ؟ ولقد دعيت من قبل الى نيف وثلاثين الله فيحكم بينى وبينهم ٠ وهأنذا اليوم أدعى الى اضـــعافها والى المزيد معها ، أفقبض يدى عن جمرة ثم أمدها لأملأها جمرا ؟ لا والله ما رغب عبد الملك لابنه فى ابنتى ، ولكنه رجل من سياسته الصـــاق الحاجة بالناس ليجعلها مقادة لهم فيصرفهم بهـــا ، وقد أعجزه أن

ابايعه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين ، وما عبد الملك عندنا الا باطل كابن الزبير ، ولا ابن الزبير الا باطل كعبد الملك ، فانظر فانك ما جئت لابنتي وابنه ، ولكن جئت تخطبني انا لبيعته ..

قال الرسول : أيها الشيخ ، دع عنك البيعة وحديثها ، ولكن من عسى أن تجد لكريمتك خيرا من هذا الذى ساقه الله اليك ؟ انك لراع وانها لرعية ، وستسأل عنها ، وما كان الظن بك أن تسىء رعيتها وتبخس حقها وأن تعضلها وقد خطبها فارس بنى مروان ، وان لم يكن فارسهم فهو ولى عهد المسلمين ، وان لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليد بن أمير المؤمنين ، وأدنى الثلاث أرفع الشرف ، فكيف بهن جميعا ، وهن جميعا فى الوليد ؟

قال الشيخ : أما انى مسئول عن لبنتي ، فما رغبت عن صاحبك الا لأنى مسئول عن ابنتي ، وقد علمت أنت أن الله يسألنى عنها فى يوم لعل أمير المؤمنين وابن امير المؤمنين وألفافهما لا يكونون فيه الا وراء عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها (١) ، يخرجون من حساب الفجرة الى حساب القتلة، ومن حساب هؤلاء الى الحساب على الرقة والغضب الى حساب أهل البغى ، الى حساب التفريط فى حقوق المسلمين ، ويخف يومئذ عبيدها وأوباشها ودعارها وسجارها فى زحام الحشر ، ويمشى أمير المؤمنين ولبن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد .

فهذا ما نظرت فى حسن الرعاية لابنتي ، لو لم أضن بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأوبقت نفسى ، لا والله ما بينى

(١) الضمير : راجع الى الدنيا .

وبينكم عمل ، وقد فرغت مما على الأرض فلا يمر السيف منى فى لحم حى !

★★★

ولما كان غداة غد ، جلس الشيخ فى حلقته فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديث والتأويل ، عفسأل رجل من عرض المجلس فقال : يا أبا محمد ، ان رجلا يلاخينى فى صداق ابنته ويكلفنى ما لا أطيق ، فما أكثر ما بلغ اليه صداق أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصداق بناته ؟

قال الشيخ : روينا أن عمر رضى الله عنه كان ينهى عن المغالاة فى الصداق ويقول : « ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم (١) » ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وروينا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا » ٠

فصاح السائل : يرحمك الله يا أبا محمد ، كيف يأتى أن تكون المرأة الحسناء رخيصة المهر ، وحسنها هو يغليها على الناس ، تكثر رغبتهم فيها فيتنافسون عليها ؟

قال الشيخ : انظر كيف قلت ! أهم يساومون فى بهيمة لا تعقل، وليس لها من أمرها شيء الا أنها بضاعة من مطامع صاحبها يغليها

---

(١) الدرهم : خمسة قروش ٠

على مطامع الناس ؟ انما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خير النساء من كانت على جمال وجهها فى أخلاق كجمال وجهها ، وكان عقلها جمالا ثالثا : فهذه ان أصـــابت الرجل الكفء ، يسرت عليه ، ثم يسرت ، ثم يسرت ، اذ تعتبر نفسها انسانا يريد انســانا، لا متاعا يطلب شاريا ، وهذه لا يكـون رخص القيمة فى مهرها الا دليلا على ارتفاع القيمة فى عقلها ودينها ، اما الحمقاء فجمالها يأبى الا مضاعفة الثمن لحسنها ، أى لحمقها ؟ وهى بهذا المعنى من شرار النساء ، وليست من خيارهن ٠

ولقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت ، وكان الأثاث : رحى يد ، وجرة ماء ، ووسادة من أدم حشوها ليف ٠ وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير ، وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق ٠ وما كان به صلى الله عليه وسلم الفقر ، ولكنه يشرع بسنته ليعـلم الناس من عمله أن المرأة للرجل نفس لنفس ، لامتاع لشاريه ، والمتاع يقوم بما بذل فيه ان غاليا وان رخيصا ، ولكن الرجل يقوم عند المـرأة بمـا يكون منه ، فمهرها الصحيح ليس هذا الذى تاخذه قبل أن تحمل الى داره ، ولكنه الذى تجـده منه بعـد أن تحمـل الى داره ، مهـرها معاملتها ، تأخذ منه يوما فيوما ، فلا تزال بذلك عروسا على نفس رجلها ما دامت فى معاشرته ، أما ذلك الصداق من الذهب والفضة . فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لاعلى النفس ، أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى ؟ افلا ترى هذه الغالية ــ ان لم تجد النفس فى رجلها ــ قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد ؟!

وما الصـداق فى قليله وكثيره الا كالايمـاء الى الرجـولة وقدرتها ، فهو ايماء ، ولكن الرجل قبل ٠ ان كل أمرىء يستطيع ان يحمل سيفا ، والسيف ايماء الى القوة ، غير انه ليس كل ذوى

السيوف سواء ، وقد يحمل الجبان فى كل يد سيفـا ، ويملك فى داره مائة سيف ، فهو ايماء ، ولكن البطل قبل ، ولكن البطـــل قبـــل !

مائة سيف يمهر بهـا الجبان قوته الخائبة ، لا تغنى قوته شيئا ، ولكنها كالتدليس على من كان جبانا مثله : ويوشك أن يكون المهـر الغالى كالتدليس على الناس وعلى المرأة ، كى لا تعـلم ولا يعـلم الناس أنه ثمن خيبتهـا ، فلـو عقلت المـرأة لباهت النسـاء بيسر مهرها ، فانها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله ، وكفت حماقتها أن تفسد عليه ٠

فصاح رجل فى المجلس : أيها الشيخ ، أفى هذا من دليل أو أثـر ؟

قال الشيخ : نعم ، أما من كتاب الله فقـد قال الله تعـالى : « خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ٠ » فهى زوجه حين تجده هو لاحين تجد ماله ، وهى زوجه حين تتممه لاحين تنقصه ، وحين تلائمه لاحين تختلف عليه ، فمصلحة المرأة زوجة ما يجعلها من زوجها ، فيكونان معا كالنفس الواحدة ، على ما ترى للعضـو من جسمه ، يريد من جسمه الحياة لا غيرها ٠

وأما من كلام رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقـد روينا : « اذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، الا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ٠ »

فقد اشترط الدين ، على أن يكون مرضيا ، لا أى الدين كان ، ثم اشترط الأمانة ، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته ، وأيسرها

أن يكون الرجل للمرأة أمينا ، وعلى حقوقها أمينا ، وفى معاملتها أمينا ، فلا يبخسها ولا يعنتها ، ولا يسيء اليها ، لأن كل ذلك ثلم فى امانته ، فان ردت المرأة من هذه حاله وصفته من أجل المهر — تقدم اليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفته ، فوقعت الفتنة ، وفسدت المرأة بالرجل وفسد هو بها وفسد النسل بهما جميعا ، وأهمل من لا يملك ، وتعنست من لا تجد ، ويرجع المهر الذى هو سبب الزواج ، سببا فى منعه ، ويتقارب النساء والرجال على رغم المهر والدين والأمانة ، فيقع معنى الزواج ، ويبقى المعطل منه هو اللفظ والشرع

هل علمت المرأة انها لا تدخل بيت رجلها الا لتجاهد فيه جهادها ، وتبلو فيه بلاءها ؟ وهل يقوم مال الدنيا بحقها فيما تعمل وما تجاهد وهى أم الحياة ومنشئتها وحافظتها ؟ فأين يكون موضع المال ومكان التفرقة فى كثيره وقليله ، والمال كله دون حقها ؟ ٠

ولن يتفاوت الناس بالمال — تختلف درجاتهم به ، وتكون مراتبهم على مقداره ، تكثر به مرة وتقل مرة — الا اذا فسد الزمان ، وبطلت قضية العقل ، وتعطل موجب الشرع ، وأصبحت السجايا تتحول ، يملكها من يملك المال ، ويخسرها من يخسره ، فيكون الدين على النفوس كالدخيل المزاحم لموضعه ، والمتدلى فى غير حقه ، وبهذا يرجع باطل الغنى دينا يتعامل الناس عليه ، ودين الفقير بهرجا لا يروج عند أحد ، وليس هذا من ديننا ، دين النفس والخلق وان الف بعير يقتنوها الرجل خالصة عليه ، ثابتة له ، لا تزيد فى منزلة دينه قدر نملة ولا مادونها ٠ والحجران : الذهب والفضة ، قد يكون شعاعهما فى هذه اضوأ من شمسها وقمرها ولكنهما فى نور النفس المؤمنة كحصاتين يأخذهما الرجل من تحت قدميه ، ويذهب يزعم لك انهما فى قدر الشمس والقمر ٠

وهلاك الناس انما يقضى بمحاولتهم أن يكونوا اناسا بعيونهم وذنوبهم . فهذا هو الانسان المدبر عن الله وعن نفسه وعن جنسه ، لا يكون أبوه أبا ىى عطفه ، ولا أمه أما فى محبتها . ولا ابنه ابنا فى بره ، ولا زوجته زوجة فى وفائها ، وانما يكونون له مهالك ، كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه سلم : « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يه زوجته وابويه وولده ، يعيرونه بالفقر ، ويكلفونه ما لا يطيق ، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك . »

وصاح المؤذن ، فقطع الشيخ مجلسه وقام الى الصلاة ، ثم خرج الى داره فتلقته ابنته وعلى وجهها مثل نوره قالت : يا ابت ، كنت اتلو الساعة قوله تعالى : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » . سما حسنة الدنيا ؟ قال : يا بنية ، هى التى تصلح أن تذكر مع حسنة الآخرة ، ومـا أراها للرجل الا الزوجة الصالحة ، ولا للمرأة ...

وطرق الباب ، فذهب الشيخ يفتح ، فاذا الطارق (عبد الله ابن ابى وداعة) ، وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته ، ولكنه فقده أياما ، فدخل فجلس ، قال الشيخ : « اين كنت ؟ » .

قال : « توفيت أهلى فاشتغلت بها . »

قال الشيخ : «هلا اخبرتنا فشهدناها ! » ثم اخذ يفيض فى الكلام عن الدنيا والآخرة ، وشعر ابن ابى وداعة أن القبر ما يزال فى قلبه حتى فى مجلس الشيخ ، فأراد ان يقوم ، فقال (سعيد) : « هل استحدثت امرأة غيرها ؟ » .

قال : « يرحمك الله ، اين نحن من الدنيا اليوم ، ومن يزوجنى وما أملك الا درهمين أو ثلاثة ؟ » .

قال الشيخ : « أنا ... ... »

أنا ، أنا ، انا ... دوى الجو بهذه الكلمة فى اذن طالب العلم الفقير ، فحسب كأن الملائكة تنشد نشيدا فى تسبيح الله يطن لحنه : « أنا ، أنا ، انا ... »

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين فى وقت واحد ، وكأنها كلمة زوجته احدى الحور العين .

فلما أفاق من غشية اذنه ... قال : « وتفعل ! » .

قال سعيد : « نعم » ! وفسر (نعم) باحسن تفسيرها وابلغه ، فقال : قم فادع لى نفرا من الأنصار . فلما جاءوا حمد الله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وزوجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشا) .

ثلاثة دراهم مهر الزوجة التى ارسل يخطبها الخليفة العظيم لولى عهده بثقلها ذهبا لو شاءت !

وغشى الفرح هذه المرة عينى الرجل واذنيه ، فاذا هو يسمع نشيد الملائكة يطن لحنه : « انا ، انا ، انا ... »

ولم يشعر انه على الأرض ، فقام يطير ، وليس يدرى من فرحه ما يصنع ، وكأنه فى يوم جاءه من غير هذه الدنيا يتعرف اليها بهذا الصوت الذى لايزال يطن فى اذنيه : « انا ، انا ، انا ... »

وصار الى منزله وجعل يفكر : ممن يأخذ ؟ ممن يستدين ؟ فظهرت له الأرض خلاء من الانسان ، وليس فيها الا الرجل الواحد الذى يضطرب صوته فى أذنيه : « أنا ، انا ، أنا ... »

وصلى المغرب وكان صائما ، ثم قام فاسرج ، فـاذا سراجه الخافت الضئيل يسطع لعينيه سطوع القمر ، وكان فى نوره وجـه عروس تقول له : « أنا ، أنا ، أنا ... »

وقدم عشاءه ليفطر ، وكان خبزا وزيتا ، فاذا الباب يقرع ، قال : من هذا ؟ قال الطارق : سعيد ...

سـعيد ؟ سـعيد ! من سـعيد ؟ أهو أبو عثمـان ؟ أبو على؟ أبو الحسن ؟ فكر الرجل فى كل من اسمه سعيد الا سعيد بن المسيب، الا الذى قال له : « أنا ... »

لم يخالجه أن يكون هو الطارق . فان هذا الامام لم يطرق باب أحد قط ، ولم ير منذ أربعين سنة الا بين داره والمسجد .

ثم خرج اليه ، فاذا به سعيد بن المسيب ، فلم تأخذه عينه حتى رجع القبر فهبط فجأة بظلامه وأمواته فى قلب المسكين ، وظن أن الشيخ قد بدا له فندم ، فجاءه للطلاق قبل أن يشيع الخبر ، ويتعذر اصلاح الغلطة ! فقال : « يا أبا محمد . لو ... لو ... لو ... لو أرسلت الى لأتيتك ! »

قال الشيخ : « لأنت أحق أن تؤتى » .

فما صكت الكلمة سمع المسكين حتى أبلس الوجود فى نظره ، وغشى الدنيا صمت كصمت الموت ، وأحس كأن القبر يتمدد فى قلبه بعروق الأرض كلها ، ثم فاء لنفسه ، وقدر أن ليس محل شيخه الا أن يأمر ، وليس محله هو الا أن يطيع ، وأن من الرجولة الا يكون معرة

على الرجولة ، ثم نكس وتنكس ، وقال بذلة ومسكنة : « ما تأمرني ؟ » .

تفتحت السماء مرة ثالثة ، وقال الشيخ : « انك كنت رجلا عزبا ، فتزوجت ، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ! » .

وانحرف شيئا ، فاذا العروس قائمة خلفه مستترة به ، ودفعها الى الباب وسلم وانصرف .

وانبعث الوجود فجأة ، وطن لحن الملائكة فى أذن أبى وداعة : « أنا ، أنا ، أنا ... » .

دخلت العروس الباب وسقطت من الحياء ، فتركها الرجل مكانها ، واستوثق من بابه ، ثم خطا الى القصعة التى فيها الخبز والزيت ، فوضعها فى ظل السراج كى لاتراها ، وأعمض السراج عينه ونشر الظل ...

ثم صعد الى السطح ورمى الجيران بحصيات ، ليعلموا ان له شأنا اعتراه ، وأن قد وجب حق الجار على الجار ، وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس التلفون اليوم ، فجاءوه على سطوحهم وقالوا : « ما شأنك ؟ » .

قال : « ويحكم ! زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها الليلة على غفلة » .

قالوا : « وسعيد زوجك ! أهو سعيد الذى زوجك ! أزوجك سعيد ؟ » .

قال : « نعم » .

قالوا : « وهى فى الدار ؟ أتقول انها فى الدار ؟ » .

قال : « نعم » .

فانثال النساء عليه من هنا وهنا حتى امتلأت بهن الدار ، وغشيت الرجل غشية أخرى ، فحسب داره تتيه على قصر عبد الملك ابن مروان ، وكأنما يسمعها تقول : « أنا ، أنا ، أنا ... » .

★★★

قال عبد الله بن أبى وداعة : ثم دخلت بها ، فاذا هى من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى ، وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحق الزوج ، لقد كانت المسئلة المعضلة تعى الفقهاء فأسألها عنها فأجد عندها منها علما » .

قال : « ومكثت شهراً لا يأتينى سعيد ولا آتية ، فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته فسلمت ، فرد على السلام ، ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس وخلا وجهه ، فنظر الى وقـــال :

« ما حال ذلك الانسان .... ؟ » .

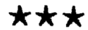
★★★

أما ذلك (الانسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر ولى العهد ابن أمير المؤمنين ، وبين حجرة ابن أبى وداعة التى تسمى دارا ... ! الا أن هناك مضاعفة الهم ، وهنا مضاعفة الحب .

وبما بين (هناك) إلى القبر مدة الحياة – ستخفت الروح من نور بعد نور ، الى أن تنطفىء فى السماء من فضائلها .

وما بين (هنا) الى القبر مدة تسطع الروح بنور على نور ، الى أن تشتعل فى السماء بفضائلها .

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى ، وما عند الله خير وأبقى .



ولم يزل عبد الملك يحتال (لسعيد) ويرصد غوائله حتى وقعت به المحنة ، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطا فى يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء ، وعرضه على السيف ، وطاف به الأسواق عاريا فى تبان (١) من الشعر ، ومنع الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه ، وبهذه الوقاحة ، وبهذه الرذيلة ، وبهذه المخزاة ، قال عبد الملك بن مروان : « أنا .... ! » .

---

(١) التبان : ما يسمى اليوم (المايو) أو لباس البحر . ذكره الجاحظ وقال : هو سراويل قصير يلبسه الملاحون .

ذيل القصـة (★)

وفلسفة المـــــال

ذهب الناس يمينا وشـمالا فيما كتبناه من خبـر الامام سعيد ابن المسيب وتزويجه ابنته من طالب علم فقيـر ، بعـد اذ ضن بهـا أن تكون زوجا لولى عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وقد جعلت قلوب بعض النساء العصريات المتعلمات تصيح وتولول ... وحدثنا أديب ظريف أن احداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مـروان ..

أفتراها ستكتب اليه أنها تقبل الزواج من ولى عهده ؟ .

على أن للقصة ذيلا ، فان الطبيعة الآدمية لا عصر لها ، بل هى طبيعة كل عصر ، والفضيلة الانسانية يبدأ تاريخها من الجنة ، فهى هى لا تتجدد ولا تزال تلوح وتختفى ، أما الرذيلـة فأول تاريخها من الطبيعة نفسها ، فهى هى لا تتغير ولا تزال تظهـر وتستتر .

★★★

لما زوج الامام ابنته من ابن أبى وداعه ، وأخذها بنفسه اليه فى يوم زوجها منه ، ومشى بها فى طريق حصاه عنده افضل من الدر ، وترابه أكرم من الذهب ـ طارت الحادثة فى الناس

(★) انظر (عود على بدء) من كتابنا (حياة الرافعى)

واستفاض لهم قول كبير ، « فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون » ، وقد قال جماعة منهم : تالله لئن انقطع الوحى ، ان فى معانيه بقية ما تزال تنزل على بعض القلوب التى تشبه فى عظمتها قلوب الأنبياء ، وما هذه الحادثة على الدنيا الا فى معنى سورة من السور قد انشقت لها السماء ونزل بها جبريل يخفق على أفئدة المؤمنين خفقة ايمان .

« وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم » ، وقال أناس منهم : أما والله لو تهيأ لأحدنا أن يكون لصا يسرق أمير المؤمنين ، أو ابن أمير المؤمنين ، لركب رأسه فى ذلك ، ما يرده عن السرقة شىء ، فكيف بمن تهيأ له الصهر والحسب ، وجاءه الغنى يطرق بابه — ما باله يرد كل ذلك ويخزى ابنته برجل فقير تعيش فى داره بأسوا حال ، وكيف تثقل همته وتبطؤ وتموت اذا كان الدر والجوهر والذهب والخلافة ، ثم ينبعث ويمضى لا يتلكأ عزمه ، اذا كان العلم والفقر والدين والتقوى ؟ .

انتهى كلام الناس الى الامام العظيم ، فلم يجئه الا من الظن خفيا خفيا ، كأنما هى أقوال حسبها تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألف سنة (فى زمننا هذا) حين يكون هو فى معانى السماء ، ويكون القائلون فى معانى التراب النجس الذى نفضته على الشرق نعال الأوربيين ... ! .

قال الراوى : ولم يستطع أحد من الناس أن يواجه الامام بشفة أو بنت شفة ، لا مضيقا عليه من قلبه ولا موسعا ، حتى كان يوم من أيام الجمعة ، وقد مال الناس بعد الصلاة الى حلقة الشيخ ، وتقصفوا بعضهم على بعض ، فغص بهم المسجد ، وكان امامنا يفسر قوله تعالى : « وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .

قال الراوى : فكان فيما قاله الشيخ :

اذا هدى المرء سبيله كانت السبل الأخرى فى الحياة اسما عداء له ، واما معارضة ، واما ردأ ، فهو منها فى الأذى ، أو فى معنى الأذى ، أو عرضة للأذى · لقد وجد الطريق ولكنه أصاب العقبات أيضا ، وهذه حالة لا يمضى فيها الموفق الى غايته الا اذا أعانه الله بطبيعتين : أولاهما العزم الثابت ، وهذا هو التوكل على الله ، والأخرى اليقين المستبصر ، وهذا هو الصبر على الأذى ·

ومتى عزم الانسان ذلك العزم ، وأيقن ذلك اليقين ، تحولت العقبات التى تصده عن غايته ، فآل معناها أن تكون زيادة فى عزمه ويقينه ، بعد أن وضعن ليكن نقصا منهما ، فترجع العقبات بعد ذلك وانها لوسائل تعين على الغاية ، وبهذا يبسط المؤمن روحه على الطريق ، فما بد أن يغلب على الطريق وما فيها ، ينظر الى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئا ـ على سعتها وتناقضها ـ الا سبيله وما حول سبيله ، فهو ماض قدما لا يتراد ولا يفتر ولا يكل ، وهذه حقيقة العزم وحقيقة الصبر جميعا ·

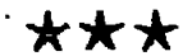
ومن ثم لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلبت واختلفت ـ الا نفاذاً من طريق واحدة دون التخبط فى الطرق الأخرى ، ثم لا يكون العمر مهما طال الا مدة صبر فى رأى المؤمن ·

وعزيمة النفاذ وعزيمة الصبر ، هما الضوء الروحانى القوى الذى يكتسح ظلمات النفس ، مما يسميه الناس خمولا ودعة وتهاونا وغفلة وضجراً ونحوها ·

قال : ولكن كيف يعان المؤمن على هذه المعجزة النفسية ؟ هنا يتبين اعجاز الآية الكريمة ، فقد ذكر فيها التوكل ثلاث مرات ، واستتحت به وختمت ، والتوكل هو العزم الثابت كما أوضحنا ·

وذكرت فى الآية بين ذلك هداية المرء سبيله ، وهذه الاضافة (سبلنا) تعين أنها هدايا الانسان الى سبيل نفسه ، أى سبيله الباطني الذى هو مناط سعادته فى الشعور بالسعادة (١) • ثم ذكر الصبر على أذى الناس ، والأذى لا يقع الا فى حيوانية الانسان ، ولا يؤثر الا فيها ، فكأن الآية مصرحة أن نجاح المؤمن ونفاذه فى الحياة لا يكونان أول الأشياء وآخرها الا بثلاث : العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ، وأن الصبر ليس شيئا يذكر ، أو شيئا يجدى ، ان لم يكن صبرا على أذى الحيوانية فى أقظع وحشيتها ، فالروح لا تؤذى الروح ، ولكن الحيوان يؤذى الحيوان ، وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيسمى اعتداء من غيرك ، ويسمى أذى لك ، هو شىء ينبغى أن يجعله العزم فخراً لقوة الاحتمال فيك ، كما جعله البطش فخراً للقدرة عند المعتدى •

وبهذا يكون العزم قد فصل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيوانى ، وهبك حقيقة الشعور ، وصحح بمعانى روحيتك معانى حيوانيتك ، وحينئذ ترى السعادة حق السعادة ما كان هداية لنفسك أو هداية بها ، ولو انقلب فى الشخص الحيوانى منك أذى وألما • ذلك صبر أولى العزم من الرسل •



قال الراوى : وعند ذلك صاح رجل كان فى المجلس دسه عامل الخليفة ليسأل الشيخ سؤالا على ملأ الناس ، يكون كالتشنيع عليه والتشهير به ، وقد مكر العامل فاختاره شيخا كبيرا أعقف ، ليرحم الناس رقة عظمه وكبر سنه فلا يعرضون له بأذى ، ثم ليكون

---

(١) سيأتى فى كلام الامام بسط لهذا المعنى •

صوته كأنه صوت الدهر من بعيد ، قال الصائح : ذلك أيها الشيخ صبر أولى العزم من الرسل ، أو صبر ابنتك على مكاره العيش مع ابن أبى وداعة ؟ لا يجد الا رمقة يمسك بها الرمق عليها ، وقد كانت النعمة لها معرضة ، فدفعتها اليه - زعمت - لتهلك به شخصها الحيوانى ، وتوكلت على الله وألقيت ابنتك فى اليم .. !.

فتربد وجه الشيخ وأطرق هنيات ، ثم رفع رأسه وقال : أين المتكلم آنفا ؟ فارتفع الصوت : هأنذا . قال : ادن منى . فتقاعس الرجل كأنما تهيب ما فرط منه . فاستدناه الثانية ، فقام يتخطى الناس حتى وقف بازائه ثم جلس ، فقرأ الشيخ قوله تعالى : « وبرزوا لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، مالنا من محيص ! » .

ثم قال : أيها الرجل ، لا تسمعنى بأذنك وحدها . أرأيتك (١) لو سمعت خبراً ليس فى نفسك أصل من معناه ، أو ورد عليك الخبر ونفسك عنه فى شغل قد أهمها ، أفكنت تنشط له نشاطك للخبر احتفلت له نفسك أو أصاب هوى منك أو رأيته موضع اعتبار ؟ .

قال : لا .

قال الشيخ : فاذا سمعت بأذنك وحدها فانما سمعت كلاما يمر بأذنك مرا ، واذا أردت الكلام لنفسك سمعت بأذنك ونفسك معا ؟ .

---

(١) أرأيتك : بمعنى أخبرنى ، تبقى تاؤه على حالها فى الافراد والتثنية والجمع ، ويسلط التغيير على الكاف : أرأيتك ، أرأيتكما ... الخ .

قال : نعم ٠

قال الشيخ : فكل ما لا تنفرد به حاسة واحدة ، بل تشارك فيه الحواس كلها أو أكثرها ـ لا يكون الا موضع اهتمام للنفس ؟٠

قال : نعم ٠

قال الشيخ : فمن هنا يكثر الفرح والحزن كلاهما اذا شاركت فيهما الحواس فيأتى كل منهما كثيرا مهما قال ، وتزيد كل حاسة فى اللذة وفى الألم ألما ، فتعمل النفس فى ذلك اعمـــالا تســحر بهــا ، فيكون الشىء لصاحبه غ يرما هو للناس ، كالصوت الباكى أو الضاحك فى لســان سطلك ، تسمعه أنت منــه بكل حواسك ، فاذا أنت سمعت الصوت عينه من لسان رجل فى الناس رأيته غير ذاك ، أكذلك هو ؟ ٠

قال : نعم ٠

قال الشيخ : أفيكون السرور بالغا عجيبا أكثر ما هـــو بالغ حين يجد المال والغنى فى الانسان ، أم حين يجد القـــوة النفسية وطبيعة المرح والرضى ؟ ٠

قال : بل حين يجد فى النفس ٠٠٠

قال الشيخ : أرأيت الانسان يكون سعيدا بما يتوهم الناس أنه به غنى سعيد ، أم بشعوره هو وان كان بعد فيما لا يتوهم الناس فيه الغنى والسعادة ؟ ٠

قال : بل بشعوره ٠

قال الشيخ : أفلا توجد فى الدنيا أشياء من النفس تكون فوق الدنيا وفوق الشــهوات والمطامع كالطفل عند أمه : كل ما تعلق

به من شيء وزن به هولا بغيره ، وكان الاعتبار عليه لا علـى سـواه ، أتعرف أما ترضى أن يذبح ابنهـا فى حجرها لقاء أن يمـلأ حجرها ذهبا وان كانت فقيرة معدمة ؟ .

قال : لا .

قال الشيخ : فاذا كانت النفس تشعر أكثر مما تـرى ، أفيذهب ما تراه فيما تشعر به ، ويكون شعورها هو وحده الذى يلبس ما حولها ويصوره ويصرفه ؟ .

قال : نعم .

قال الشيخ : أفتعرف أن لكل نفس قوية من هذا العالم الذى نعيش فيه ، عالما آخر هو عالم أفكارها واحساسها ، وفيه وحده لذات احساسها وأفكارها ؟ .

قال : نعم .

قال الشيخ : أفرأيت المرأة اذا صح حبها أو فرحهـا أو عزمها ـ أرأيتها تكون الا فى عالم أفكارها ؟ أرأيت كل ما يتصـل برغبتها حينئذ يكون الا من أشياء قلبها لا من أشياء الدنيا ؟ أرأيتها لا تعيش فى هذه الحالة الا بالمعاملة مع قلبها الذى لا يأكـل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المال ولا يريد الا الشعور فقط ؟ .

قال : نعم ، هو ذاك .

قال الشيخ : أرأيت اذا كان الايمان قد ولد ونشأ وترعرع فى قلب المرأة ، ألا يكون هو طفل قلبها ؟ .

قال : نعم ٠

قال الشيخ : أرأيت اذا كانت الخمـــر عند مدمنها شيئا عظيما ، وكانت ضرورة من ضرورات وجوده الضعيف المختل فلا يستقيم وجوده ولا سفه وجوده الا بها ، أفيلزم من ذلك أن تكن الخمر من ضرورات صاحب الوجود القوى المنتظم ؟ ٠

قال : لا ٠

قال الشيخ : أفموقن أنت أن لا بد من آخر لأيام الانســـان ولياليه فى هذه الدنيا فينقطع به العيش ؟ ٠

قال : نعم ٠

قال الشيخ : أفيؤرخ الانسان يومئذ بتاريخ معـــدته وما حولها ، أم بتاريخ نفسه وما فيها ؟ ٠

قال : بل بتاريخ نفسه ٠

قال الشيخ : فاذا كنت صاحب حرب ، وكنت بطـــلا من الأبطال ، ومسعرا من المساعير ، وأيقنت الموت فى المعـركة ، أيكون الحقيقى عندك فى هذه الساعة هو الموت أم الحياة ؟ ٠

قال : بل الفرار منها ، فان خيالها يكون خيالا ٠

قال الشيخ : فتفر فى تلك الساعة الى الحياة ولذاتها فى خيالك ، أم تفز منها ومن لذاتها ؟ ٠

قال : بل الرار سنها ، فان خيالها يكون خيالا ٠

قال الشيخ : ففى تلك الساعة التى هى عمر نفسك ، وعمل نفسك ، ورجاء نفسك ـ تستشعر اللذة فى موتك بطـلا مذكـورا ، أم تحس الكرب والمقت من ذلك ؟ .

قال : بل أستشعر اللذة .

قال الشيخ : اذن فهى كبرياء الروح العظيمة على مادة التراب والطين فى أى أشكالها ولو فى الذهب ! .

قال : هى تلك .

قال الشيخ : اذن فبعض أشياء النفس تمحـو فى بعض الأحوال كل أشياء الدنيا ، أو الأشياء الكثيرة من الدنيا ! .

قال : نعم .

قال الامام : يرحمك الله ! كذلك محى عندنا أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ، ومحى المال والغنى ، ولم يكن ذلك عندنـا الا سعادة ، ومن رحمة الله أن كل من هدى سبيله بالدين أو الحكمـة ، استطاع أن يصنع بنفسه لنفسه سعادتها فى الدنيا ولو لم يكن له الا لقيمات ، فان السعة سعة الخلق لا المال ، وان الفقر فقر الخلق لا العيش .

★★★

قال الراوى : ثم ان الامام العظيم التفت الى النـاس وقـال : اما انى ـ علم الله ـ ما زوجت ابنتى رجلا اعرفه فقيراً أو غنيا ، بل رجلا اعرفه بطلا من أبطال الحياة ، يملك أقوى أسلحته مـن الدين والفضيلة ، وقد يقنت حين زوجتها منه أنها ستعرف بفضيلة

نفسها فضيلة نفسه ، يتجانس الطبع والطبع ، ولا مهنأ لرجل وامرأة الا أن يجانس طبعه طبعها ، وقد علمت وعلم الناس أن ليس فى مال الدنيا ما يشترى هذه المجانسة ، وأنها لا تكون الا هدية قلب لقلب يأتلفان ويتحابان ٠

ثم قال الامام : وأنا فقد دخلت على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ورأيتهن فى دورهن يقاسين الحياة ، ويعانين من الرزق ما شح دره فلا يجيء الا كالقطرة بعد القطرة ، وهن على ذلك ، ما واحدة منهن الا هى ملكة من ملكات الآدمية كلها ، وما فقرهن والله الا كبرياء الجنة نظرت الى الأرض فقالت : لا ٠٠٠٠ ! (٢) ٠

يجاهدن مجاهدة كل شريف عظيم النفس ، همه أن يكون الشرف أو لا يكون شيء ، ويرى العاقل أن مثلهن هالكات فى تعب الجهاد ، ويعلمن من أنفسهن غير ما يرى ذلك المسكين : يعلمن أن ذلك التعب هو لذة النصر نعيتها ٠

كانت أنوثتهن أبداً صاعدة متسامية فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى ، ولا تزال متسامية صاعدة ، على حين تنزل المطامع بأنوثة المرأة دون موضعها ، ولا تزال أنوثتها تنحدر ما بقيت المرأة تطمع ، ورب ملكة جعلتها مطامع الحياة فى الدرك الأسفل ، وهى باسمها فى الوهم الأعلى ٠٠ ! ٠

---

(١) توفى سعيد بن المسيب سنة احدى وتسعين للهجرة أو حولها وكان قد لقى جماعة من الصحابة وسمع منهم ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن ، وكان متزوجا ابنة أبى هريرة الصحابى الجليل ، وعنه أكثر روايته ٠

(٢) انظر مقالة : (درس من النبوة) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ٠

وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اطلعت فى الجنة فاذا أقل أهلها النساء فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلهن الأحمران : الذهب والزعفران » أى الطمع فى الغنى والعمل له ، والميل الى التبرج والحرص عليه ٠

ونفس الأنثى ليست أنثى ، ولكن شغلها بذلك التبرج وذلك الحرص وذلك الطمع ـ هو يخصصها بخصائص الجسد ، ويعطيها من حكمه ، وينزلها على ارادته ، وهذه هى المزلة ، فتهبط المرأة أكثر مما تعلو ، وتضعف أكثر مما تقوى ، وتفسد أكثر مما تصلح ٠ ان نفس الأنثى لرجل واحد ، لزوجها وحده ٠

رأيت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فقيرات مقتوراً عليهن الرزق ، غير أن كلا منهن تعيش بمعانى قلبها المؤمن ، فى دار صغيرة فرشتها الأرض ٠٠٠ ولكنها من معانى ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئة بين أربعة جدران ٠ انهن لم يبتعدن عن الغنى الا ليبعدن عن حماقة الدنيا التى لا تكون الا فى الغنى ٠

★★★

أف أف ! أتريدون أن أزوج ابنتى من ابن أمير المؤمنين فيخزيها الله على يدى ، وأدفعها الى القصر وهو ذلك المكان الذى جمع كل أقذار النفس ودنس الأيام والليالى ؟ وأزوجها رجلا تعرف من فضيلة نفسها سقوط نفسه ، فتكون زوجة جسمه ومطلقة روحه فى وقت معا ؟ ٠

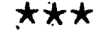
ألا كم من قصر هو فى معناه مقبرة ، ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالهم ونسائهم الا جيف يبلى بعضها بعضا ! ٠



قال الراوى : وضج الناس لحمامة صغيرة قد جنحت من الهواء ، فوقعت فى حجر الشيخ لائذة به من مخافة ، وجعلت تدف بجناحيها وتضطرب من الفزع ، ومر الصقر على أثرها وقد أهوى لها ، غير أنه تمطر ومرق فى الهواء اذ رأى الناس ...

وتناولها الامام فى يده وهى فى رجفتها من زلزلة الهواء ، وكانت كالعروس مسرولة قد غابت ساقاها فى الريس ، وعلى جسمها من الألوان نمنمة وتحبير ، ولها روح العروس الشابة يهدونها الى من تكره ، ويزفونها على قاتلها الذى يسمى زوجها .

وأدناها الشيخ من قلبه ، ومسح عليها بيده ، ونظر فى الهواء نظرة ... وهو يقول : نجوت نجوت يا مسكينة ! .



رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٦٤ / ١٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 4433 — 9



مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب